مهاجر من إسرائيل

رواية

د . إيهاب سلام

(١)

يمكن أن تقول إنني بعيد عن الدين ، ولكني لم أكن ملحداً مثل بعض اليهود . كنت أومن بقوة خارقة خلقت هذا الكون وفقاً لقوانين لا يمكن اختراقها . غير أني لم أكن أجاهر برأي ، تمشياً مع السلامة ، مثلما كان يجاهر هرتزل مؤسس الصهيونية السياسية العالمية. ففي مرة زار القدس فيها ، انتهك شعائر الديانة اليهودية ، حتى يتأكد الجميع أن له نظرة لا دينية تختلف عن عقيدته التي ينتسب إليها .لقد كان موطن أبي ، هو وأمي ، في ألمانيا . وقد هربا معاً من حكم هتلر في أواخر الأربعينيات بل إن عائلة أبي هربت جميعها . وقد التقى أبي وأمي في فلسطين حيث تزوجا . أنجباني أنا وأخوتي هناك . أما فروع عائلة أبي فقد هاجرت إلى أمريكا . منهم عم لي كانت له صولات وجولات في مجال الأعمال المصرفية وهو الذي احتضنني يوم قررت الهجرة إلى أمريكا . هاجرت من إسرائيل إلى أمريكا ، وكنت من مواليد إسرائيل . ولدت والمعارك الحربية بين إسرائيل والعرب على أشدها . وبينما كان الوالدان يعتبران من المهاجرين إلى إسرائيل . كنت أنا من مواليد الأرض الذين يسمون بالصابرا . مثل موشيه ديان . جاء لي هاتف تملكني وهو الانعتاق من المجتمع الإسرائيلي والاندماج في المجتمع الغربي أي الهرب من الحياة اليهودية ، لذلك تركت إسرائيل بعد حرب أكتوبر (حرب كيبور كما نسميها) بسنوات قليلة . هاجرت إلى أمريكا

وعملت في ذلك المصرف الذي يديره عمي . وتركت أمي وأبـي العجوزين مع أخي وأختي . . واستمررنا على صلـة نتراسـل . نتخاطب هاتفياً يطلبان مني العودة وإلغاء الهجرة ، لكني لم أعـد . عدت فقط حينما بدأت إسرائيل تتصالح مع العرب . عدت لأبحـث فقط ما إذا كانت إسرائيل ستعيش .. ستستمر كما تستمر الـدول أم أن لها عمراً افتراضياً تنهار بعده مثلما أنهار الاتحاد السـوفيتي . وتفكك . هل سيكون مصير إسرائيل التفتت أو الاختفـاء وحلـول دولة محلها . إسرائيل الصهيونية اليهودية ذات الأغلبية اليهوديـة الساحقة . هل مصيرها الزوال أم أن مصيرها أن تبقى مثلما بقيت مصر جارتها أكثر من سبعة آلاف سنة أو بالأحرى خمسـة آلاف سنة . ثلاثة آلاف قبل الميلاد وألفان بعد الميلاد .

أخذتني الطائرة من جديد إلى ارض الميعاد . مرة أخرى أعـود إلى الوطن الذي تركته . جئت لأستطلع الخبر . أتعرف الاتجـاه . أفتش عن المستقبل . ماذا تقصد بالعمر الافتراضي ؟ .. هل تقصد أن يحدث لها ما حدث في قديم الزمان ؟ ..

***

أرميا .. أنت من أوحى الرب إليك بخراب القدس . يقول قـال الرب : إني أقسم بجلالي وعزتي لاهيجن عليهم خيولاً لا يفقـهون ألسنتهم ، ولا يعرفون وجوههم ، ولا يرحمون بكاءهم ، ولابنيـن فيهم ملكاً جباراً قاسياً ، له عساكر كقطـع السـحاب ، ومواكـب

كأمثال الفجاج ، كأن خفقان رياشه طيران النسور ، وكأنه حمل فرسانه كر العقبان ، يعيدون العمران خراباً ، ويتركون القرى وحشة فيا ويل " إيليا " وسكانها .

أنت يا ارميا من بشرتهم بالهلاك ولم يستمعوا لك . لقد ابلغتهم رسالة الرب ، وأسمعتهم ما فيها من الوعيد والعذاب . غير أنهم عصوك وكذبوك واتهموك بالكذب . فأخذوك وقيدوك وسجنوك ، فعند ذلك بعث الله عليهم بخت نصر . جاء بجنوده ونزل بساحتهم وحاصرهم . وبطش بهم . وقتل الثلث وسبي الثلث . ووطأتهم الخيل وهدم بيت المقدس ، وساق الصبيان وعرض النساء للبيع في الأسواق ، وقتل المقاتلة وخرب الحصون وهدم المعابد وحرق التوراة .

***

رجعت طائراً ، والقلب يطير مني . ما تزال عاطفة الابن ترجف فؤادي . ولاقيت أول ما لقيت أمي . فتحت الباب تسأل عمن يطرق الأبواب . واندفعت نحوي صائحة تضمني وهي تقول : من بن ؟ ..

سمتني على اسم بن جوريون لكن اسمي بن إيجال . ورأيته جالساً على كرسي هزاز . هذا هو إيجال أبي ينهض متكاسلاً كأنما فقد عاطفة الأبوة منذ زمن . ولم يندفع لأن يضمني ، لكنني احتضنته بقوة . شعرت أني فقدته دهراً واسترددته ، رغم ان

الحياة في أمريكا جمدت عواطفي في ثلاجتها . وكان هناك موشيه إيجال . أخي . اصبح حاخاما . يرتدي الملابس السوداء . ويضع قلنسوة صغيرة على شعره الكث . وذقنه التي استطالت غـــرزت مخالبها في ذقني الناعم . ثم جوديثا . الطفلة التي لم أرهـــا منـــذ أعوام ، أصبحت الآن شابة ناضجة . فوجئت وأمي تقـــول لـــها : أخوك بن المهاجر في أمريكا . وقال أبي ساخرا : المهاجر مـــن إسرائيل .

سألني أبي بوقار : أي ريح أعادتك ؟ ..

لم أستطع أن أقول إنني اجمع مادة عن معوقات بقاء إسرائيل .

فقلت كلمة واحدة : افتقدتكم . هز رأسه ولم ينبس .

نهضت أمي لتعد شيئا نأكله .

***

في صباح اليوم التالي . شاهدت أبي يغادر البيت متجها إلـــى المعبد . وعلى رأسه القلنسوة الصغيرة أو هذا الغطاء الصغـــير . أعرفه جيدا إنه قبعة اليهود . أو كطربوش الأتـــراك . أو كقبعـــة الإفرنج . سألت أمي وهي تستعد للذهاب هي الأخرى : لقد كـــان أبي من التنوريين .. من جيل بن جوريون . فما حوله هكذا ؟ ..

أجابت : لقد أعلن الكثيرون التوبة ، وعادوا إلى تعاليم الديـــن وأبوك منهم . إنها الرغبة في التحرر من الشعور بالقنوط .

قلت : لكني تركت إسرائيل وقد ذبلت العقائد . بسبب الحـــرب وحوادث الحدود والمصاعب الاقتصادية . تركت المجتمـــع وهـــو

يكاد ينهار . وكنت من النازحين إلى خارج إسرائيل رغبة في حياة هانئة .

قالت : يا بني لقد انتهت هذه الفترة . لقد عاد الشعور الديني جارفاً . استيقظ الرب في قلوبنا .

تركتهما يذهبان . وكان موشيه قد غادر البيت منذ الفجر قاصداً المعبد . أما جوديثا فكانت نائمة . لا تزال هناك بقية من الإسرائيليين تهوى النوم والمتعة وتبتعد عن الجهد والرفعة .

***

كنت سائق دبابة في حرب كيبور (اكتوبر) خرجنا وقتها نحارب . كانت حرباً حقيقية وليست كمثل تلك الحرب السابقة . كانت تلك الحرب زائفة – حرب يونيه – لم نفعل فيها شيئاً . جرفنا أمامنا الجنود وهم لا حول لهم ولا قوة . معهم بنادق حقاً لكنهم لا يقدرون على تحريك زنادها . واكتسحنا سيناء في ست ساعات حتى بلغنا ذلك المانع المائي . مانع قناة السويس . وطفقنا نجمع الأسرى في الطريق . ولما زاد عددهم قال قائدنا : كيف سنطعم هذه الأفواه كلها . اقتلوهم خير لنا . ثم سكت وقال بعد فترة : ولهم . ذلك ما وصلني من الجنود الكبار معنا في حرب كيبور . لأني كنت في العام ١٩٦٧ لا زلت في المدرسة . ولم أخض مع الخائضين تلك الحرب . أما حرب كيبور فلم تفوتني فرصتها . واجهت فيها جنوداً مدربين . كانوا يصيدون الدبابات بالآرباجا . يقف الجندي على بعد أمتار من الدبابة . لا يراه قائدها

ويقذف القذيفة إلى داخل القيادة فيتفحم الجنود في داخلها . قد يصبحون فحما . أو قد يخرج منها واحد او اكثر لكن النيران مشتعلة فيه . لا ينفع التقلب على الرمال من أن يطفئ النار المتوحشة . والماء بعيد . إذا بلغه الجندي يكون قد أصبح رمادا يجري . لكني خرجت من دبابتي ووليت الفرار ، ولم احترق لكن تم أسري مع عساف ياجوري . انتظرت أن يقتلوني – المصريون – بعد أسري لكن شيئا من ذلك لم يحدث . كيف إذا قتلناهم في الحرب السابقة المظفرة صاحبة أقواس النصر ؟ .. لم أفهم . وبقيت تحت وطأة الأسر حتى تم فك القيود وعدنا إلى إسرائيل . وتم تسريحي إلى الاحتياط . وقد أشعلت الحرب لدي الرغبة في الهجرة في باطني حتى أصبحت لا أطيق . اتصلت هاتفيا بعمي بنيامين في المصرف الأمريكي . قلت له إنني لا أطيق أن أعيش في بلد مهزوم . قال : تعال عندي في أمريكا .

***

قالت جوديثا حينما استيقظت ورأتني جالسا أقرأ جريدة الصباح : لم تعد المعابد متاحف يا بن .. لقد أصبح الشيوخ يقصدونها . إن الناس الآن يعودون إلى الدين .

سألتها : ولم لم تعودي أنت الأخرى ؟

قالت ضاحكة : أنا أقف على الحياد .

(٢)

قررت أمي أن تقيم احتفالا بمناسبة عودتي إلى الأراضي المقدسة . ووجدت فرصة أن أوطد أواصر التعارف بيني وبين الشخصيات المدعوة إلى الحفل . فقد أجد لديهم ما يفيدني في دراستي التي أزمعت القيام بها بعد العودة إلى إسرائيل .

كان هناك رعيل من المحاربين القدماء الذين عاصرهم أبي في جيش الدفاع . وكان هناك ذلك اللواء الذي كان يتفاخر بقتل الأسرى المصريين في حرب ١٩٦٧ . لقد حصدهم حصدا وهم عراة وقد وثقت أيديهم . وقبل إعدامهم حفروا بأنفسهم الحفرة العميقة التي كانت ستأوي عظامهم إلى الأبد . كان يتفاخر من حين لآخر بذلك . ولكنه لا يعلن ذلك على الملأ . كان ينتقد بشدة ذلك العسكري الذي تفاخر علنا أمام الصحافة أنه حصد الكثيرين من المصريين في حربي ١٩٥٦ و١٩٦٧ وهم حفاة عراة لا قوة في أيديهم ولا سيطرة لهم على أنفسهم . وكان هناك أحد الشيوخ العرب الذين دخلوا الكنيست بفضل شعبيتهم . كان من السكان القدامى لمدينة القدس الغربية . ولم ينزح عند استرداد القدس إلى القدس الشرقية . وفضل البقاء في إسرائيل ، واستمراره في السيطرة على ممتلكاته الزراعية والعقارية . واستمرت معه زوجه . وكانت تصحبه هي وابنتهما . شدتني إليها بمجرد أن رأيتها وصافحتها. فهمت من هذا المصحف الذهبي الذي تعلقه على

صدرها الناهد .. أنها مسلمة ، كأنما كانت تتحـــدى الإســـرائيليين وتعلن إسلامها .

وكان هناك بعض الصحفيين والعسكريين العاملين تعرفت عليهم لأول مرة . وعزمت على أن أوثق علاقتي بهم ، فيمكن أن يكــون لديهم رد على سؤالي . ذلك الذي تركت من أجله آلاف الأميـــال . ولا أعرف كيف سوف أتحقق من الإجابة عليه .

وجاءت جولدا الفتاة التي أحبتني كثيراً . وكان تجنيدنا معـــــاً . غير أنها لم تكن في سلاح المدرعات كما كنت ، إنما كانت تعمـــل في سكرتارية أركان الحرب بالجيش الإسرائيلي . ورغـــم ذلـــك استمرت بيننا أواصر الصداقة . وحينما تم أسري في حرب كيبور سعت لدى قائدها أن ينقذني من الأسر . وقد تعاهدنا على الزواج ، لكن التحول النفسي في داخلي جعلني أكره حياتي في إســـرائيل . خرجت من الأسر كأنما فقدت انتمائي إلى هذه الدولة . وكرهـــت حكومتها التي تزج بنا من حين لآخر في حروب نفقد فيها آباءنـــا وأبناءنا أو أخوتنا أو أصدقاءنا . وقد دفعتني عقدة الأســـر إلـــى الهجرة من البلاد حتى أنعم بالراحة النفسية . طلبت منها أن تـــأتي معي غير أنها رفضت أن تتزحزح من تل أبيب إلى نيويـــورك . وكانت قد استمرت في وظيفتها العسكرية ولم تنسحب من الحيـــاة العامة . وانتقلت مع المنتقلين إلى القدس حينما أعلنت إسرائيل أنها أصبحت العاصمة . بل إن بعض الإسرائيليين انتقلوا مع الحكومـــة

إلى أورشليم رغم أن تحركهم لم يكن له داعٍ ومن بين هؤلاء أبـــي وعائلته .

تباعدت في الحفل عن جولدا . وتقربت من علياء ، ذلك الوجـــه الجديد الذي شدني ، كأنما هناك مغناطيس في ذلك الوجه . كـــانت تختلف عن جولدا اختلافاً كبيراً . كانت جولدا شقراء ، ولـــو أن شعرها الذهبي يبدو صناعياً ، كأنما تخفي به آثار الزمن البيضاء . وكانت علياء داكنة الشعر على وجه أبيض كـــالحليب الممـــزوج بالبرتقال الوردي . وكانت أنف جولدا شامخة تشبه أنـــف فيفيـــان لي . غير أن أنف علياء كانت صغيرة أيضاً لكـــن خاليـــة مـــن الكبرياء . والفم دقيق بعكس فـــم جولـــدا الواســـع ذي الشـــفتين المطموستين . وكانت جولدا طويلة القامة لكن لم تتعـــد قـــامتي . بعكس علياء فكانت تبدو كعصفور صغير . وكـــانت جولـــدا قـــد امتلأت فزاد شحمها وكادت تترهل لولا أن حياتها العسكرية حالت دون الإفراط في الترهل . غير أن علياء كانت في مقتبل العمـــر ضامرة . ولعل السبب الرئيسي في ابتعادي عن جولدا هـــو أنـــها كانت تضع يدها في ذراع رجل عرفت أنه زوجها أو صديقـــها . غير أن علياء لم تكن تضع حول إصبعها مـــا يثبـــت خطوبـــة أو زواج .

خرجت من هذا الحفل الذي أقامته أمي بصداقة عليـــاء . لقـــد أخذت تحدثني عن رحلتها إلى أمريكا في مهمة صحفية . وقـــالت رأيها الصريح في نيويورك وفي أهلها ذوي الأجناس المختلفـــة .

كانت تشتاق لفلسطين وهي على الأرض ذات المشارب المتنوعة . ولما حاولت أن أصحح لها أنها على إسرائيل وليس فلسطين . قالت منطلقة : أنتم تسمونها إسرائيل وانا أسميها فلسطين . مثلما نسمي رب العالمين الله . وانتم تسمونه ياهوا .

أعجبني تحديها . ذلك التحدي الذي لم أجده في جولدا . مما زاد انجذابي إليها كأنما كنت أجد طعما جديدا من النساء لم أشهده من قبل . وتركت جولدا ذلك الرجل الذي يصحبها . وجاءت تقول : أريد أن أراك . شدتني من أمام علياء حتى لا تسمع علياء ما ستقول . وقلت لها : وهذا الرجل ألا تحضنينه . وأشرت إلى الرجل المهندم الواقف وحيدا ينتظرها . قالت : لا يهم . قلت بإصرار : لكن ذلك يهمني .

انصرفت غاضبة .

لقد استمرت جولدا على علاقة بأمي . وكانت لا تجد أحدا في أورشليم توده حينما انتقلت مع الحكومة إلى أورشليم من تل أبيب . وكانت أمي تعرف بدورها تلك الصلة الحميمة التي كانت بيني وبين جولدا . ويبدو أن أمي أرادت أن تعيد بعث ذلك الحب الملتهب الذي صار بركانا خامدا . وذلك من خلال دعوتها إلى الحفل . ويبدو أنها قالت لها إن لها صديقاً فلم تمانع أن تدعوه معها حتى تثير نار الغيرة في قلبي . غير أن البركان ظل خامداً . لم تحركه بعض الشرارات التي صنعتها أمي . لعلها كانت تقصد من ذلك أن ارتبط من جديد بأرض الميعاد بعد أن هجرتها هذه المدة

الطويلة وذلك من خلال ارتباطي بجولدا التي لا ترضى بـــالفراق عن الأرض .

غير أن الحفل لم يستمر طويلاً . دخل أحد الزائرين ليعلـــن أن أسحاق رابين الوزير الأول قد اُغتيل . اغتاله شاب عربي أســـمر تسلل من بين الحرس ليطلق ثلاث رصاصات في صدره . وتجــهم الجميع فيما عدا أُخي موشيه . وزادت قلوبنا تهيجاً حينما قال : إنه عربي .

(٣)

خرج موشيه إلى عمله في الصباح ، وكذلك جوديثا حيث كانت تعمل طبيبة للعلاج الطبيعي في إحــــدى المؤسســـات الخاصـــة . ومضى أبي إلى الكنيس يتعبد . يثير الاستغراب فــــي نفســـي أن يتحول هذا العلماني إلى متدين ! .. أما أمي فقـــد خرجــت إلـــى السوق ، تشتري اللحم والخضراوات والفواكه .. كان المعاش الذي يتقاضاه أبي من الجيش معاشاً كبيراً لذلك لم تواجــه الأســرة أي أزمات . بقيت في البيت أشرب وحدي قهوة الصباح . حينمـــا دق الجرس . فتحت الباب . رأيتها أمامي . صافحتـــها . حـــاولت أن تضمني إليها لكني تغاضيت ، فاستسلمت لتباعدي .

قالت جولدا بحزن : لقد غادرتنا طويلاً .

قلت لحبي القديم : كنت تستطيعين أن تأتي معي .

قالت بغضب : إننا نتمسك بـــالأرض . أمـــا أنــت فـــازدريت الانتماء .

قلت : أين يباع هذا الانتماء . ماذا جنيت منه ؟ .. لقد تم أسري في الحرب . وما كدت انتهي من دراساتي العالية حتى بلغ الســيل الزبى .

قالت : لكنك تركت وراءك ما هو أحق برعايتك .

سألت : كلامك غامض لا أفهمه .

قالت وأنفاسها تتهدج وقد توترت : أنا لا أطالبك بشيئ . أريــد فقط أن تعرف أن تعرف أن لك ابناً .

سألت : كيف ؟

قالت : نعم .. لقد حملت قبل سفرك .. ولم أتبين أني حـامل إلا بعد سفرك . كنت أعرف أن لا مجال لتعويقك عن الســفر .. ولا سبيل أن أدعوك إلى العودة لتلبي .

سألت : كم عمره ؟

قالت : احسب أنت .

قلت : أربع عشرة سنة .

– بالضبط .

فاضت مشاعري . أحسست بالارتباك . لم اعد أصدق ثم أعود فأصدق . إن جولدا لا يمكن أن تكذب . لو كانت تكذب لأرسـلت إلى منذ سنين . وبعد اسهام طويل سألتها : وأين هو الآن ؟ . .

قالت : يتربي ويتعلم في مدرسة داخلية .

– بعيداً عن أمه .

– بعيداً أيضاً عن أبيه .

– ولم لا تغدقي عليه حنانك وتضميه إليك .

– إن الخبز أو طلب الخبز أحياناً يدفع الإنسان إلى تصرفـلت ترفضها الفطرة السليمة . إن وجوده في مدرسة داخليـة لـن يعطلني عن عملي .. وعملي هو مصدر رزقي . ذلك الـذي اتمكن به من أن أكفل له ولنفسي حياة رغدة .

– ولم لا يصرف عليك ذلك الرجل الذي كان معك يوم الحفلة .

– هذا صديق .. ليس إلا ..

–إذا انت لم تتزوجي حتى الان ؟

– هذا بالضبط ما حدث .

–وماذا تطلبين مني ؟

– أنا لا أطلب منك شيئا . ما أنا إلا مبلغة الخبر لك . إن الوضع أشبه بكتاب تركته لناشر فجاء يبلغك أن كتابك طبع ونشر .

قلت متهدجا ، والدماء تتدفق في قلبي بسرعة :

–أريد أن أراه . سألت :متى ؟

قلت : ماذا ستقولين له ؟

– – سأقول له .. ولم تتكلم . أجهشت بالبكاء . ثم قالت : وما الفائدة من أن أقول له ؟

ضممتها إلى أطيب خاطرها . غرقت في أحضاني كأنما تستمرئ ذلك . غاصت كأنها تريد أن تتحد معي . التهمت شفتيها لأول مرة منذ خمسة عشر عاما .

أمعقول هذا الزمن الطويل قد مضى .. دون أن أضمك يا جولدا .. أين كان قلبي وقتها ؟ .. لم تتكرت لحبي ورفضت وطني ؟ .. وغادرت أهلي .. لعلها عقدة الحرب تمكنت مني . وجعلتني أكره كل ما حولي . بل عقدة الأسر . لكني لم أكن أسيرا

يعيش ظروفا ضاغطة . قضينا في الأسر أياما كأننـــا كنـــا فـــي نزهة . كنت شابا يافعا دفعتني الآلة العسكرية إلى الحرب . لـــم ينتظروا حتى استكمل تعليمي . تم تجنيدي لأدخل ساحة الوغـى .. أدخل ساحة الغول الكاسر ، فحطمني من الداخل كما حطمني مـــن الخارج ، فأطلقت ساقي للرياح .

لم أكن قد بلغت السنة الأولى من عمري ، حتى خرج أبي إلـــى الحرب للمرة الثالثة . غادرنا ليقاتل في سيناء . وعاد إلى البيـــت كأنه كان في نزهة . بل خرج إلى نفس النزهة مرة أخرى . وعاد يقول إن المصريين لا يتعظون . لقد طبقت عليهم خطة ١٩٥٦ في عام ١٩٦٧ ولم يكونوا قد استعدوا لمواجهتـــها . ضـــاعوا تحـــت الأرجل ودمرتهم تماما قنابل الطائرات . لقد تم الاســـتيلاء علـــى آلاف الأنواع من الأسلحة تركت في العراء لمن يستولي عليها . . وبيعت إلى بلاد تدخل في اتحاد مع مصر اسمه عدم الانحيـــاز . ماذا فعل عدم انحيازكم ؟ .. كنت وقتها في الثانية عشرة اســتقبلت أبي بالأحضان ، وكان عائدا بنفسية صافية . أشبه بقطرات النـــدى على الزهر في الفجر . لكني لما عدت أنا من حرب كيبور عـــدت مهزوم النفس .. كئيبا .. واستمررت أعاني وأنا فـــي الجامعـــة . وبعد أن تخرجت . واستمرت علاقتي بجولدا ســـبع ســـنوات دون ارتباط . لم تطالبني بالزواج . كانت علمانيـــــة مثلـــي تـــرى أن العلاقات الزوجية ثقل على المرأة أكثر من الرجل . وأن الانطلاق في الحياة فوائده جمة أكثر من القيود . وانطلقنا معا ولكن بحـذر .

حتى يبدو أنها فقدت حذرها حينما شعرت أنني على وشك الرحيل . أرادت أن يكون لها مني أنيس ترتبط به العمر كله . ذلك الولد سيكون أعمق ارتباطاً بها من ارتباطي بها . ويبدو أنها تراجعت في اللحظة الأخيرة لكن بعد فوات الأوان . كانت البذرة قد استقرت في رحمها ولم تتمكن من نزعها . كانت أشواكها قد رشقت في جدار الرحم وطفقت تنمو إلى أن كانت ولداً .

–ما اسمه ؟ ..

– سميته اسحاق بن إيجال .

– سميته على اسم ذلك المقتول .

– كان وقتها بطلاً من أبطال حرب ٦٧ وما بعدها . كنت أنتمي إلى حزب العمل .

–وماذا حدث في مقتله ؟ ..

– أتضح أن القاتل يهودي .

(٤)

لا أدري ما الذي دفعني بعد خروج جولـــدا أن أديـــر قـــرص الهاتف ، وأسمع الصوت الرخيم يسأل : من ؟ .. قلت : أنا نجـــم حفلة الأمس . ضحكت وقالت : أمـــا زلـــت تذكـــر ؟ .. قلـــت : الماضي لا يموت . قالت : من أجل ذلك استوليتم علـــى أرضنـــا بزعم أنكم أصحابها . قلت : أنت تتحولين إلى السياسة بأسرع مـن البرق . قالت : أنا ضوء لا يتوقف . قلت : وإذا توقـــف صـــار مادة . قالت : عجيب هذه نظرية جديدة في علم الفيزيـــاء . قلـــت أدخل في الموضوع : أريد أن أراك . قالت : لم ؟ .. قلت : أريـــد أن نتحدث كثيرا في مواضيع مختلفة . قالت ضاحكة : وهل بيننـــا مواضيع ؟ .. قلت : أحسســـت بـــالأمس أن بيننـــا كثـــيرا مـــن المواضيع . قالت متسائلة : مثل ماذا ؟ .. قلت : مثـــل الجاذبيـــة الروحية . الانجذاب العاطفي . الانفعال الجميل . قـــالت : هـــذه كلمات كبيرة لا أستطيع أن أناقشها ثم قطعت كلامـــها وســـألت : سمعت انك هاجرت من إسرائيل ، فلم عدت ؟ .. قلت بعد تفكير : أقول لك إنني جئت لأشاهد على الطبيعة عوامل البقاء والفناء فـــي دولة إسرائيل . قالت : وهل تعتقد أن دولة تساندها كـــل الـــدول الأوربية والأمريكية في الحق والباطل يمكن أن تفنى .

قلت : كانت روسيا تستند إلى أمريكا في الفترة الأخيرة من حكم جوربا تشوف لكن روسيا تفككت . قالت تعترض : أمريكا لم تكن تساند روسيا . إنها منذ زمن تريدها أن تغرق . أنظر مثلاً أمامي مقالة كتبها كاتب عربي يقول " إن خيارات المستقبل أمام الدولة اليهودية أخذت تضيق ولن تسمح لها بمزيد من التوسع والمواجهة والحرب . وإن بقاء الدولة اليهودية واستمرارها رهن بطبيعة السلام الذي يمكن ان تتوصل إليه مع جيرانها العرب . سوف يدرك أعداء السلام في إسرائيل أن مصرع رابين قد يكون بداية لتمزق الدولة اليهودية إذا تقلب منطق الجماعات اليهودية المتطرفة .... قاطعتها قائلاً : وهل لمجرد أن رئيس دولة اُغتيل تسقط الدولة . هذا وهم . ألم يُغتال رئيس جمهورية مصر السادات واستمرت الدولة . قالت : أنا معك . لقد اُغتيل المهاتما غاندي في الهند وهو الزعيم الروحي الكبير لكن مسيرة المطالبة بالاستقلال استمرت وانتصرت الهند على الامبراطورية البريطانية .

(٥)

عادت أمي من السوق ، فتحت الباب ، وجدتني أجلس أطـــالع الصحف . تحدثت عن قاتل رابين فوجئت هي أنه يـــهودي . لــم نسمع أن رؤساء اليهود يقتلون بأيدي اليهود . منذ انشـــاء الدولـــة على الأقل . ولو أنهم قتلوا أنبياءهم في قديم الزمان . آه لو كـــان القاتل عربيا لهاجت الدنيا . إن الدنيا تثور إذا كان القاتل عربيـــا . أما إذا كان يهوديا فإن الدنيا تلتزم الصمت . ألم تلـــتزم الصمــت وقت أن أمطر باروخ جولدنشتين المصلين في المسجد الأقصـــى . وفي أيام تم نسيان الحادثة . كم أكره العنف ! .. إننـــي أكـــره أن أرى دجاجة تذبح أمامي .

سألت أمي : من كان هنا ؟ ..

نظرت فوجدت الكوب الذي شربت فيه جولدا مياهها الغازيـــة . كان لا يزال مستقرا في مكانه . قلت بهدوء وأنا أنحي الصحيفـــة جانباً :

– جولدا جاءت لتخبرني خبرا هاما ..

– أخبرتك عن أسحاق ..

– أكنت تعرفين ؟ ..

قالت ممتعضة : نعم . كنت أعرف . ثم أردفت : لم أقــل لـــك لأنك هجرتنا . ولم تعد تكتب خطاباً أو تتصل هاتفياً كأنما لم نكـــن

أهلك إلا من حين لآخر متباعداً. فهل أبعث السعادة في قلب إنسان أتعسنا !؟ ..

-ألهذا الحد ؟ ..

- نعم و أكثر

انفجرت أمي قائلة : لم أكن أظن أن من حملته تسعة شهور .. وربيته وعلمته ، يقطع صلته بنا فجأة .. هكذا ولا تكون له علاقة بنا .

قلت : كانت نفسيتي متعبة يا أمي .. أعذريني .

قالت : وكذلك كانت أنفسنا يا ولدي .. من أجل ذلك لم أبلغك بأنه أصبح لك ولد .. حتى جولدا نفسها رفضت أن أبلغك لأنك كنت لاهياً .

- أنا أعرف .. وهي التي قبلت أن نتصل ..

قطعت كلامي كأنما تستهجنه . وفهمت ثم قالت : لقد أخطأتما معا .

قلت : سوف أذهب إلى رؤيته والتعرف عليه .

قالت : سيكون لقاء مشهوداً . ابن يتعرف على أبيه بعد أربع عشرة سنة .. تصور .

قلت : ما ذنبي أنا .. لم أكن اعرف .

قالت : لو كنت قد أبلغتك . أكنت ستعود إلى إسرائيل ؟

ترددت في الإجابة وتملكتني الحيرة . لقد خرجت من إسرائيل وأنا عازم على ألا أعود .ربما أكون قد كرهت العنف منذ صغري

وكانت زجاجة اللبن التي أشربها مذابا فيها العنف . يكفي أنه جاء في التوراة : كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم من البرية ولبنان والفرات إلى النيل تكون تخومكم . أو يقول : لقد أختاركم الرب لتكونوا شعبا خاصا فوق جميع الشعوب على وجه الأرض . أو يقول : حين تذهب إلى مدينة لكي تحاربها استدعها للصلح فإن أجابتك وفتحت لك أبوابها فكل الشعب الذي تجده فيها يكون عبيدا لك تسخره في خدمتك . فإن حاربتك ودفعها الرب إلى يدك ، فأضرب جميع ذكورها بحد السيف وأجعل من نسائها وأطفالها وبهائمها غنيمتك . أي عنف ذلك الوارد في التوراة . كرهت سفك الدماء منذ صغري ، وازدادت كراهيتي له حينما تم اقتيادي إلى الحرب ."

التفت إلى أمي وقلت لها : ربما .

قالت ساخرة : إذن ستبقى حتى تنهض على تربيته .

أفحمتني بسؤالها . أنا حائر الآن بين حب جديد محكوم عليه بالفشل . حبي لعلياء الذي جاء فجأة . وبين حب قديم مكتوب على باب مدفنه أنه مات منذ سنوات . فهل أقوم بوأد الحب الجديد أم بعث الحب القديم . ماذا أفعل ؟

" كانت ترافق المحقق ، وهو يتفقد الأسرى العائدين من أرض مصر . كان يملؤنا الخزي . ويلطخ العار وجوهنا . والتقت عيني بعينيها فكأنما شرارة من نار الحب تولدت فيها وتحول القلب إلى

جذوة متقدة . تذكرت ذلك الشاب الذي التقت به في بداية التجنيد وتعرفت عليه وتحابا . في ذلك اليوم حاولت أن تجعل المحقق يتخفف معي . حادثتني كثيراً قبل التحقيق معي وبعده . وتواعدنا على اللقاء في أيام السبت . وأعلنتها برغبتي في أن تؤجل الحب حتى انتهي من الجامعة . قالت : إن الحب لا يؤجل لكن الزواج يمكن تأجيله . عشنا معاً في عفاف طويل العمر . وكنت أزورها في بيتها . وهناك شاهدتني أمها وعطفت علي . وشجعتني على صداقة ابنتها صداقة شريفة . كانت صاحباتها يستغربن أنني لم امسسها طوال فترة الجامعة . غنما ألتقي بها وأتحدث معها حديثاً طويلاً مليء بالحب والحنان . واستمرت في وظيفتها العسكرية . بينما أنا أمضي في دراساتي الجامعية . وحتى بعد أن تخرجت لم أفاتحها بالزواج . بل لم تحاول هي أن تشدني إليها . ولعلها كانت تشاهد تطورات نفسي نحو الكآبة والسخط والتبرم . وكيف كنت انتقد الحرب والعنف والتآمر . وكيف كنت أكره الصهيونية وألاعيبها وفظائعها . حاولت أن تخفف عني ، لكني كنت ماضياً في طريق لا رجعة منه . حاولت جولدا بالكلام أن تثنيني عن هدفي في الهجرة لكني كنت مصراً . حاولت بالحب .. لكنها فشلت . حاولت بالجنس لكنها منيت بالهزيمة . كان التباعد بيني وبين المجتمع الإسرائيلي يزداد .. كنت أنادي بإعادة كل الأراضي التي احتلتها إسرائيل إلى أصحابها . وفي نفس الوقت غضبت لما أعادت إسرائيل سيناء إلى مصر . وكانت تلك ذريعة

لأن أصب غضبي على الرؤســاء والمرؤوســين فــي المجتمــع الإسرائيلي . ولما طلبت من جولدا أن ترحل معي إلى أمريكــا . رفضت . كانت تتمسك بالأرض والبقاء فيها ولا تنوي الرحيــل . وغادرتها وأنا لا ادري أنني أزرع في أرضها نبتاً جديداً .

(٦)

سرنا معاً في أورشليم القدس . ورأينا الإباحة تتجسد . حتى الحاخامات شاهدناهم يبحثون عن المتعة بين جنبات المدينة . دعوتها إلى مطعم من المطاعم نتناول فيه العشاء . غير أنها رفضت أن تخوض غمار هذه المطاعم العامرة بالعابثين . ولا تختلف عنها الملاهي والكازينوهات . كانت تأبى أن تشاهد الخليعات وهن يرقصن أو تشاهد اليهود وهم يقامرون .

وقع بصرنا على بعض الشباب اليهودي يدخن النارجيلة والسجائر المحشوة بالمنكرات ، وبنات اللذة يعرضن بضاعتهن عليهم . ما أقبح هذا المنظر ! .. مالت علي ، ونحن لا نزال سائرين :

– أنظر ماذا فعلتم بالقدس ؟ ..

– الفساد في كل أنحاء الدنيا . أذهبي إلى نيويورك أو أذهبي إلى فرانكفورت .. أو إلى لندن .. أو حتى إلى القاهرة ، ستجدين الفساد .

قالت غاضبة :

– لكن هذه مدينة مقدسة . لا يجوز امتهان قدسيتها . إنك لم تذهب إلى مكة أو المدينة المنورة . هناك سوف تجد الخشوع والطاعة لله والتصرف بحكمة .

سكت ولم أتكلم . فأنا لا أعرف عن هاتين المدينتين شيئاً .

وأخيرا عثرنا على كازينو هادئ يســوده الاحــترام . دخلنــاه فوجدنا الصمت يريم عليه ، لكن يبدو أن كــل حبيــب فيــه مــع وليفته . ولما جلسنا ، وسيطر الصمت على المكان ، جرحه ذلــك النادل ذو الملابس البيضاء ، والبنيقة السوداء . ســـألتها بعــد أن قررنا ماذا نشرب ومضى النادل لتلبية طلبنا :

- هل تتزوجينني يا علياء ؟ ..

قالت بثبات :

- كيف ؟ ..

قلت دون ادنى غضب : كما يتزوج الرجل المرأة ؟ ..

- على أي سنة ؟ ..

- نهاجر إلى أمريكا . وهناك نتزوج زواجــا مدنيــا دون حساسية الأديان .

- هل هذا معقول ؟ .. إن ديني يمنعني من أن أتزوج بغير مسلم . والآية الكريمة تقول : ولا تنكحوا المشــركات حتــى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم . ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمن ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم . إلا إذا .. إلا إذا أصبحت مسلما عن ظهر قلب .

ضحكت وأنا أقول : إذا كنت بعيدا عن اليهودية فكيف أكــون قريبا من الإسلام .؟ ..

قالت بثبات غريب :

- إذا لم تكن مسلما فلا يمكن أن تنشأ علاقة بيني وبينك ؟

ثم سكتت وأردفت :

– ثم أنا لن أغادر هذه المدينة .. ولن أهجر ذلك الوطـــن . يكفي من غادرها .. يكفي من هجرها أو هاجر منها .

هززت رأسي وقلت : تريدون أن تكونوا أغلبية ؟

قالت مبتسمة : كيف ؟ .. إذا كنتم تسمحون بهجرة يهود العـــالم إلى فلسطين .. أقصد إسرائيل .. وتمنعون أي فلسطيني أن يعود . بل تقتلون منهم في كل يوم واحداً هل ذلك الإنكماش يـــؤدي إلـــى أغلبية ؟ ..

ثم عادت تقول : أنت لا تدري عما تفعله بلدك مع الفلسطنيين ؟

– ماذا تفعل ؟

– تقتل في كل فترة رجلاً . بل لو طالت أن تقتل كل ســـاعة رجلاً لقتلته . أنت لا تدري أن جولدا مائير قد عينـــت الجـنرال أهارون ياريف قائداً للمجموعة المسماة ١٠١ عملها الرئيسي قتـــل الفلسطنيين البارزين في الخارج .

– مثل من ؟

– عندك وائل زعيتر كانت تعتبره الموساد ممثـــلاً لمنظمـــة أيلول الأسود في روما . وضعت في طريقه رجلين وامرأة وعنـــد مدخل منزله أمطرته المجموعة بالرصاصات التســـعة . محمـــود عشري ضحية أخرى . قيل إنه كان مسئولاً عن محاولة اغتيال بن جوريون سميك .. وضعوا له عبوة ناسفة في جـــهاز الـــهاتف ،

واتصلوا به وبمجرد أن رد انفجرت في رأسه العبوة . إن دولتكـــم تدعي محاربة الإرهاب وهي زعيمة الإرهاب .

- وما علاقة ذلك بقلبي وقلبك ؟

- كيف تظن أن قلبي يهواك ، وأنـــا أرى أهلـــي وعشـــيرتي يتساقطون ؟ .

ساءلت نفسي لم إذن جاءت تقابلني ؟ .. حاولت تفسير ذلـــك . يبدو انها تحاول أن تتمعن في تجربة مـــهاجر مـــن إســـرائيل . تتفحصها عن قرب . تحاول أن تتعرف على جذورها وفروعـــها وثمارها .

قالت تسألني :

- قلت إنك بعيد عن الدين ، معنى ذلك أنك غير يـــهودي الديانة ؟ ..

قلت : أنا أومن إيماناً عميقاً بقوة عليا تحكمنا . هي التي شكلت كل الأشياء وكل الأشخاص . نعيش فيها وتعيش فينـــا . لكـــن لا أومن أن هذه القوة تصطفي بعض الحكماء . إنما هي التي تمـــهد لوجودهم بفضل هيمنتها الكبرى على الكون كله أو الأكوان لو كان هناك أكثر من كون . فلا هي كلمت . ولا هـــي أعطـــت قوتـــها لأحد . ولا هي قرأت او كتبت .

قالت : إذن أنت تنكر الأديان ؟ ..

قلت : كيف أنكرها وهي موجودة فعلاً ؟ ..

- أقصد أنك لا تعتقد بالعقائد التي جاءت بها ؟

– إن هذه القواعد قواعد للسلوك . وهي مستحبة ومطلوبة حتى يكون الوئام بين البشر وتخلو حياتهم من الصراع والاستغلال والتحكم ، فهي قواعد غير مرفوضة .

– أنت تعتبر في حكم ديني من المشركين .

– أنا قلت لك إنني أومن بقوة عليا .. هي قوة الله وحده ، فكيف أكون مشركا ؟ ..

– في هذه الحالة أنت لا يمكن أن تكون مسلما ، فكيف إذن أتزوجك ؟ .. أنا لا يمكن أن أنكر ديني .. إنني أومن أن القوة العليا التي تزعمها أوحت إلى الرسول بكل التعاليم التي قالها .

– إذا كان الحب جمعنا ، فإن الدين سوف يفرقنا .

– أنا قادرة على ان أقتل حبي في قلبي . لكني غير قادرة على وأد ديني في فؤادي .

عدت في ذلك اليوم وأنا مقتنع بسذاجة هذه المرأة . مجرد أن أشهد أمامها أنني مسلم ، سوف تطير فرحا . وتوافق على الزواج مني . بل قد أدعي أمامها الصلاة كما يصلون والصوم كما يصومون ، فتقفز من الفرح ، وتفتخر أمام الناس بإسلامي .. مع اني قد أحرك شفتي أو أدعي الصيام وآكل في مكان آخر غير جنة البيت الذي يأوينا . إذا كنت اريد أن أفوز بها فلم لا افعل ذلك ؟ .. حينئذ سوف يقال عني إنني من المنافقين . من ذلك الذي يقول إذا

كنت لن أُكتشف ؟ .. لقد روت لي قصة ذلك الدكتور الذي تم التفريق بينه وبين زوجه في مصر ، بسبب إلصاق تهمة الردة عليه . ألا يستطيع أن يقف هذا الدكتور أمام المحكمة وينطق بالشهادتين ويتبرأ من كتاباته السابقة . ثم يعيش بعيداً عن الصراعات الدينية . لا أدري أنا لا أفعلها ، فكيف هو يفعلها ؟ ..

كنت اجلس مع الأسرة نشاهد رئيس الوزراء الجديد في التلفاز . يتحدث عن أعمال العنف . ويحذر من وقوع أعمال جديدة بعد مقتل رابين . كانت جوديثا تجلس مكتئبة معنا وليست معنا . أدركت أنها تفكر في حبيب لها . وكان موشيه يبدو متوتراً . وبيريز يعلن أن موجة العنف تسود إسرائيل حالياً ويجب التعامل معها بحزم وبكل الوسائل . وحينما قال عن هؤلاء الذين يحثون على العنف هم رسل الشيطان . أرتبك موشيه . ووضع قدماً على قدم كأنما يمسك القدمين بهذه الحركة حتى لا ترتعشا . وأدخل أصابع يده اليسرى في يده اليمنى كأنما يصنع شبكة تخمد الأعصاب المنفلتة . . أحسست كأنما هو ضالع في هذه الجريمة . أيكون واحداً من الحاخامات التي حرضت القاتل على الاغتيال ؟ ..

كانت أمي تذهب وتجيء . تعد طعام العشاء . بينما أبي منهمك ينظف غليونه . ويدس فيه التمباك . وهو يتامل عساف جيفيتير مدير الشرطة الإسرائيلية يعلن أن المجموعة التي خططت لعملية

الاغتيال كانت تخطط منذ عامين وتمكنت من تنفيذ مخططها من خلال اختراق الثغرات الكبيرة في جهاز الأمن الداخلي في إسرائيل .

نهض موشيه كأنما يتوارى عنا حتى لا نشاهد اضطرابه . وانصرفت جوديثا إلى حجرتها . وسألني أبي :

- هل ستبقى معنا لمدة طويلة أم أنك في إجازة ؟
- أتري أن أرحل ؟ ..

كانت أمي تضع ماء وأكواباً على المائدة ، واستمعت إلى ما يقول فقالت :

- إن أباك لا يقصد ذلك .

قال أبي :

- أعتقد لو كنت ستبقى معنا .. ابحث لك عن عمل . إن تخصصك مطلوب ، ولن تتعرض للبطالة .

- أعرف أن هناك بطالة في كل المستويات . لكن لا انوي العمل هنا . إن لي وظيفة في البنك الأمريكي . ولن أفكر أن أفقدها . جئت فقط لأراكم .

امتعض أبي وقال :

- لقد نسيت إسرائيل يا ولدي .

(٧)

غريب هذا الإنسان كأنه مصنع ينتج منتجات متشابهة لا تختلف إحداها عن الأخرى . شاهدته أمامي كأنما أشاهد صباي . تذكـوت صورتي أثناء وقوفي أمام المرآة أتطلع إلـــى وجـــهي . وكـــأني رجعت ست وعشرين سنة إلى الخلف . نفس الوجه نفس الملامـــح والتقاطيع . بل ذات الموج في شعر الـــرأس . وذات الانتصـــاب بالجسد وهو يتطاول . قالت جولدا : هذا أبوك . كأنما كان يشـتاق إليّ .. إلى رؤيتي .. إلى أحضاني . اندفع يضمنـــــي . ضممتـــه بشدة . شعور غريب ان تتحول فجأة إلى أب . كيف حرمتني مـــن الأبوة هذه السنين الطويلة ؟ .. أكانت تؤدبنـــي علـــى جـــرم لـــم أرتكبه ؟ .. هل ظنت أنني لن اعترف به ؟ .. أو لعلها ظنت أنـني سأتلقى الخبر ولن أعود لأراه وأعترف به وأضمه ؟ ..

لاحظ الفتي ملاحظة دقيقة وراح يقول : كأنك نسخة مني .

قلت : أنت النسخة يا اسحاق وأنا الأصل . وضحكنا جميعاً .

يعيش مع جدته وامه . ونظراً لكبر سن جدته فقد أودعته أمـــه مدرسة داخلية . وظيفتها تدر عليها مالاً ، تتمكن به مـــن الوفـــاء بمطالبه ومطالبها ومطالب جدته . إنهم من اليهود القـــادمين مـــن المغرب . نزحوا إلى إسرائيل قبل النشوء الفعلي . واستقروا علـــى

الأرض دهراً . ومات الأب في إحدى الهجمات على مستعمرات العرب في حيفا . وتركت الأم المكان لتلتحق بعمل في تل أبيب . وتمكنت ان تنشئ ابنتها نشأة صلبة . والتحقت البنت بالقوات المسلحة الإسرائيلية عاملة في مجال الأعمال الكتابية . وتدرجت في العمل حتى كانت أحد أركان مكتب أركان حرب جيش الدفاع الإسرائيلي . لا يمكن لقائد أحتل ذلك المكان أن يستغني عنها . كانت هناك جولدا في الحكم . وكانت هناك جولدا في الجيش . وتلتقي باسحاق ابنها في أيام السبت ، فإن لم تستطع ، فيبقى مع جدته حتى صباح الاثنين ويعود بعدها إلى المدرسة الداخلية . مستوى ذكاء الولد عال كأنما أبوه بُعث من جديد .

قال يسألني السؤال التقليدي :

- لم غادرت إسرائيل ؟ ..

قلت أجيبه إجابة جديدة :

- كنت أريد أن أدرس دراسات عليا في أحسن الجامعات .

قال ونظرات الشك في إجابتي تبرق في عيني جولدا :

- وهل درست ؟ ..

قلت : نعم . بالإضافة إلى عملي في بنك أوف أمريكا . درست في الجامعة .. حتى أتممت الدكتوراه .

- الدكتوراه .. هل أنت طبيب ؟ ..

- لا .. إن دراساتي في الأعمال التجارية

شعرت بالفخر في عيني جولدا .. أن يكون والد اسحاق رجلاً ضليعاً في العلم .

سألتني الجدة :

- ماذا تنويان الآن يا ولدي ؟

قلت وأنا غير راض عما أقول :

- نصحح كل الأخطاء يا أمي .

وخرجنا معاً إلى المتنزهات .. إلى السيرك .إلى كل مكان طلبه اسحاق .شعور فياض جرفني نحوه . واستقر اسحاق في قلبي . وتحركت صورة علياء في ذهني . وجدت أن فكرة الزواج منها أمر مستحيل ، فالفتاة متمسكة بدينها وترفض الاقتران بيهودي ولو بعقد مدني . وليس أمامي الآن غير حبي القديم . أعود إليه وقد أثمر ثمرة ناضجة .

ولما رجعت إلى البيت . وجدت خطاباً ينتظرني يقول لي : ابتعد عن جولدا وإلا سيكون مصيرك مصير رابين . وقد أغفل المهدد توقيعه . كما أغفل اسمي .

(٨)

لم ارتعدت بعد أن قرأت الخطاب ؟ .. هل أنا جبـــان أخشـــى القتال ؟ . لا . لم اكن جبانا . لقد كنت أقود دبابـــة فـــي حـــرب كيبور . وأتقدم دون وجل . حقا . انطلقت منها عندمـــا أصابتـــها قذيفة . وكان حظي أنها اشتعلت بعيدا عن مكان القيادة . قفـــزت منها والجنود المصريون يحاصرونني ، لكني كنت ثابت الجـأش . لم أرتعد ، فكيف سرت تلك القشعريرة في أوصالي ، وأنا أقـــرأ خطاب التهديد . أيكون ذلك الراغب في القنص هو ذلـــك الرجـــل الذي كان يصاحب جولدا في الحفل ؟ . . أيمكن أن يكون ذلـــك الخطاب ذريعة للاعتذار لجولدا عن الزواج . وفي نفس الوقـــت ، قد يحي الأمل من جديد نحو علياء . لكن ذلـــك لـــن يمنـــع مـــن اعترافي القانوني بولدي اسحاق . اعترافا لا تشوبه شائبة ولو أنـــه ابن قادم من الخطيئة ، لكن إضفاء الشرعية على بنوته يطمس تلك الخطيئة .

طلبت جولدا هاتفيا ، ورويت لها القصة وسألتها :

- من تعتقدين أن يكون كاتب هذا الخطاب ؟

قالت وأنا لا أتبين طبقات صوتها فلا أتعرف على أنها تعـرف المهدد أو تجهل به : لا أعرف .

سألتها مرة أخرى : هل هو صديقك الذي كان معك في الحفل ؟

نطقت قائلة : جوزيف آلون !! ..

سألتها : هل هو غيور ؟

قالت تموه :

- لا أدري .. لم أتعرض لأوضاع تقتضي غيرته .
- ربما يعرف أننا كنا على علاقة ما ؟ ..
- نعم يعرف .
- ولم جئت به إلى الحفل .
- طلبت ذلك من أمك فوافقت .. لعلني كنـت أريـد أن أعرف مدى تعلقك بي .. كنت أريد أن أثير غيرتك
- أحقاً .. إنك لم تثيري غيرتي لأنني أعتقـد ان مسـائل الحب والغرام مسائل شخصية . ويجب أن تكون متبادلة . وإن لم تكن كذلك فلا يجوز أن تثير غيرة أو حقد بل يجب علـى الإنسان أن يستسلم للأوضاع فلا إجبار في الحب . لكن الواقع أنك أثرت غيرته .

(٩)

سألتها : ما لي أراك مهمومة هكذا ؟

قالت جوديثا : لأني في مشكلة ..

سألتها : وما هي مشكلتك ؟

قالت : أحببت مسيحياً أرمنياً ممن استوطن أهله إسرائيل من قبل أن تنشأ . وأردت ان أتزوجه لكن أباك وأخاك وقفا ضدي . منعاني حتى من الاتصال به .

قلت : ألا تعرفين ان لليهود موقفاً من المسيح يتوارثونه جيلاً بعد جيل .

قالت باستهانة : أنا لا يهمني ذلك الموقف .. أنا أجري وراء قلبي . لقد أحببته ، ولن يتسنى لي أن احب غيره . لكن سعادة الحاخام وأباك يقفان حائلاً دون حبي وسعادتي .

سألتها : وهل ستتركين أبناءك منه يتحولون من المسيحية إلى اليهودية أم ستحولون من اليهودية إلى المسيحية .

- العقيدة يختارها الإنسان حينما يكبر .. إن ميراث العقيدة يضعفها لا يقويها .

- إنهم يؤمنون ان المسيح ابن الله فهل ستؤمنين أن الله له ولد ؟ ..

- أنتم تؤمنون أيضاً أن عزير ابن الله .

سرحت في قولها

" تقول اليهود إن عزيراً ابن الله ، ذلك لأنه أماته وبعثه إلى الحياة . خلق قلبه ليعقل قلبه . وعينيه لينظر بهما فيفعل . وعرف كيف يحي الله الموتى . ثم ركب خلقه وهو ينظر . وكسا عظامه اللحم والشعر والجلد ثم نفخ فيه الروح . كل ذلك وهو يرى ويعقل فاستوى جالساً . وسأل الملك : كم لبثت ؟ .. قال : لبثت يوماً أو بعض يوم . قال له الملك : بل لبثت مائة عام . ودلل له على ذلك أن حماره قد بليت عظامه وصارت نخرة فنادى الملك عظام الحمار ، فأجابت وأقبلت من كل اتجاه حتى ركبه وعزير ينظر إليه ثم ألبسها العروق ثم كساها العظام . ثم أنبت عليها الجلد والشعر . ثم نفخ فيه الملك فقام الحمار رافعاً رأسه وأذنيه إلى السماء ناهقاً . آمن عزير بقوة الله ومضى إلى قومه . وهناك عرف القوم أن عزيراً بُعث بعد مائة عام من الوفاة . وطالبوا ان يأتيهم بالتوراة لأن عزيراً كان يحفظه . وكان قد حرقه بختنصر ولم يبق منه شيء . إلا ما حفظت الرجال . فسردها على بني إسرائيل . فهكذا لم يستطع موسى أن يأتي بني إسرائيل التوراة إلا في كتاب ، غير ان عزيراً جاء بها من غير كتاب . وقالت اليهود عزير ابن الله . " .

(١٠)

جلست مع أبي بعد عودته من المعبد . ترددت قبل أن أسـألـه : ما رأيك في جوزيف آلون ؟ ..

سكت طويلا وقال : ذلك الرجل الذي كان مع جولدا .

هززت رأسي علامة الإيجاب ، فأردف : أنا لا أرتاح إليـه . يقال إنه دموي . إنه أحد الضباط الكبار في المعتقـلات . لست أدري لم سمحت أمك بحضوره عندنا .

رددت أمامه : دموي ! ..

هز رأسه وقال : نعم . إنه يشـرف علـى عمليـات تعذيـب الفلسطينيين الذين اعتقالهم حتى يبوحوا بأسرارهم . يقال إنه يتلـذذ من ذلك التعذيب . ويقال إنه أنطق الحجر بكل ما فيه من أسرار .

تساءلت في غمغمة : وكيف ارتبطت به جولدا الرقيقة ؟ ..

سمعني أبي ، ورد قائلا : يبدو أنه فرض نفسه عليها . قـالت لي إنه تعرف عليها في إحدى الحفلات العسكرية . كانوا يحتفلـون بميعاد اجتياح الحدود الجنوبية للبنان .. وهناك فرض نفسه عليها .

يبدو أنه كالعنكبوت إذا سقط على الضحية أو سقطت الضحية في شباكه الهشة لا يتركها . يمتص رحيقها حتى النهاية .

سألت أبي : ألا تستطيع ان تفلت منه ؟ ..

قال : يبدو أنها تحتاج إلى رجل قـوي يقـف فـي مواجهتـه وينتشلها من براثنه .

قلت لوالدي : يبدو أنك تعرف الكثير عنه وعن جولدا ؟ ..

قال أبي بعد تردد : جولدا تأتي إلينا . وشـكت لـي همـها . سألتني النصيحة . قلت لها إن تكن لينة معه حتى يضـع الـرب مشيئته .

قلت لأبي وأنا أتمعن في كلماتي : أتعرف أنها أنجبت مني ولدا اسمه اسحاق .

قال أبي دون تردد : اسحاق بن إيجال .

- أكنت تعرف ؟ ..
- نعم .. كنت اعرف .
- ولم لم تبلغني ؟ ..
- أعتقد أن ذلك لم يكن ليحركك للعودة إلى الوطن .
- أتعرف يا والدي .. أنا أكسب هناك أكثر مما كنت أكسب هنا .. وهناك تعلمت حتى حصلت على الدكتوراه .. وهنا لـم أكـن اصل إلى شيء .
- لكنها أرضنا لا يجوز أن نبرحها . لقد وعدنا بها الـرب .. ولسوف نحافظ عليها .

- لكن رابين وأمثاله يتنازلون عنها يوما بعد يوم .

- سيأتي اليوم الذي نستردها من جديد .. لعلك تعرف شيئا عن الاستعمار القديم . كان الاستعمار عسكريا . ولكن ثبت ان أعباءه كثيرة . ثم صار الاستعمار اقتصاديا . تسيطر على مقدرات البلاد دون أن تحرك جيوشا .. بيريز الآن يحاول ان يصل إلى هذه المرحلة بمشاركة العرب في الحياة الاقتصادية .. ونظرا لقوتنا المالية والعقلية فسوف تتم السيطرة على هذه المقدرات .

- الاستعمار الآن اصبح في مرحلة جديدة يا أبي . إنه استعمار عقائدي (آيدولوجي) فكري . فهل سنصل إلى أن نسيطر على هذه الشعوب فكريا ؟ ..

- إذا سيطرت على الاقتصاد .. سيطرت على الفكر . سيطر أولا على المعدة والمأوى والكساء . تسيطر على الفكر والمعتقدات .

رجعت إلى الموضوع الأصلي وقلت له : إن جوزيف آلون يهددني . يريدني ان ألحق برابين إذا ما اتصلت بجولدا .. تصور ؟ ..

انتفض أبي كأنه شعر أنه سيفقد ابنه البكر . وقال : عن الأمر يجب أن يصل إلى الشرطة .

سألت ابي : وكيف أثبت أنني المهدد وأنه يهددني؟ .. إن الخطاب خال من أي إشارة .

(١١)

وصل موشيه في ساعة متأخرة من الليل . دخل بوجه متجهم ، يكاد أصفراره يبين . وحلقات سوداء حول عينيه تدل على القلـــق المستعر في قلبه . كنت أشاهد التلفاز ولم يلق السلام إنما مضــى إلى حجرته . أغلقت الإرسال . واتجهت إليه . لما رأيتـــه يخلــع رداءه الأسود ، سألت : تبدو هذه الأيام مضطرباً ؟ ! ..

هز كتفيه وقال : ولم أضطرب ؟ ..

واجهته قائلاً : هل أنت متورط في حادث مقتل رابين الوزيــر الأول ؟ ..

ابتسم ابتسامة لم تكتمل على وجهه ، اصطنعها غير أن الصنعة لم تكن دقيقة ، وقال :وكيف أتورط ؟ .. كنت معك في الحفل ، ولم أكن معه في احتفاله .

قلت : تورط بالنصح . نصح القاتل بأن يقتل رجلاً أراد ســلب الأراضي التي آلت إلينا بالحرب .

قال محتداً : هذه أراضينا . أعطاها إيانا الرب .

قلت : هذا أمر لا شك فيه . أعطاها إيانا الرب في المــاضي ، لكننا تركناها . رحلنا إلى كافة بلاد العالم ولم نســتقر فيــها . بعناها . فهل نسترد أرضاً فرطنا فيها ؟ ..

قال : لكننا استرددناها .

قلت : استرددناها بالقتال .. وسفك الدماء ..

قال : وما في ذلك . إن أمريكا ذاتها لـــم تكــن للأوربييــن . واستولوا عليها بالحرب وسفك دماء السكان الأصليين .

قلت : ذلك شيء مضى عليه خمسة قرون . ولم يتمكن أصحاب الحق من المطالبة به . أما وضعنا فإنه لم يمض عليه خمســـة عقود . وأصحاب الحق يطالبون به .

قال : أنت هكذا تريد أن تفقدنا مكاسبنا .

قلت : المهم ألا تكون متورطاً ؟ ..

قال : أنا لا أعرف القاتل ، ولم أشاهده ولم ألتق به .. وهـــاهم يقبضون على آخرين يزعمون أنهم شركاء له . ولم يتم القبض عليّ ! ..

قلت : لكني أراك مضطرباً .. أصفر الوجه . كظيماً .

- ربما يهييء لك .

كان موشيه يكره العنف مثلي ، رغم أننا – نحن الاثنين ننحدر من صلب رجل عسكري الطبع – لذلك اتجه هو إلى الدين حتىيعفــي من التجنيد . ولكني كنت علمانياً فلم استطع أن أهرب من الخدمــة العسكرية ، لكن موشيه يؤمن بأرض إسرائيل لذلك استقر بها يعظ الناس ، غير أني لم استقر بها لأني هربت من الدم .

(١٢)

مر أسبوع دون أن أبدأ المهمة . سأتحول إلى جاسوس لحساب نفسه . ينقب عن المعلومة التي تفيده في البحث . لكن ما هي المعلومات التي ستساعدني على أن أتنبأ بأن إسرائيل ستستقر وتمضي قدماً إلى الأمام أم ستنهار وتتراجع إلى الخلف . السكان مثلا هل يزيدون أم يتناقصون ؟ .. إذا كان عددهم يزيد فهذه عزوة . وإذا كان عددهم يتناقص فهذه كبوة . وهم سوف ينكمشون نتيجة الهجرة إلى خارج البلاد أو نتيجة ضعف الخصوبة . الأرض مثلا تقلصت بعد أن كانت ممتدة على أبعد من مدى البصر . لكن الاتفاقات الجديدة جعلتها تتآكل . وهاهي الاتفاقات تعيد الضفة الغربية وغزة . ولم يبق غير الجولان والجزء الجنوبي من لبنان . ويمكن التنبؤ بأنهما عائدتان إلى ديارهما . يجب أن اجلس واكتب كل هذه المعايير المطلوبة مني بحثها . حتى اصل إلى اقتناع . لا أنسى السلطة . هل زالت هيبتها بعد مقتل رابين ؟ .. ذلك اليهودي الذي قتله يهودي أم أن بيريز سوف يسترد الهيبة . ويعيد السلطة مرة أخرى على هذه الرقعة الباقية .

(١٣)

خرجت جوديثا في الصباح الباكر ، بل لعلها ذهبت عند الغسق ، ولم تعد . انتظرناها على الغداء ، فلم تحضر . ودخل الليل إلى الدنيا ، فعبث القلق بقلب أمي ، فاتصلت بالمستشفى الذي تعمل به ، فردت عليها إحدى زميلاتها ، واخبرتها أن جوديثا لم تأت في ذلك اليوم . وقع الخبر علينا كالصاعقة . وصرخ أبي : لعلها هربت مع ذلك المسيحي الأرمني ! .. قلت في سري موجها الكلام لأبي . وما في ذلك يا أبي . إنها تلبي نداء القلب . حيث لا دين ولا عقيدة ولا فكر . إن القلب ينجذب إلى الحب . غير أني لم أعلن رأي لأن أبي كان ثائرا . ارتدى ثيابه على عجل وقد قرر أن يذهب إلى ملاقاة ذلك الأرمني المسيحي . وينتشل ابنته منه . هكذا تحول العلماني إلى رجل دين . هكذا يحدث أن صغار السن يتباعدوا عن الملكوت الإلهي ، وكبار السن يقتربون ! .. رفض أن يذهب معه أحد . كانت جوديثا قد اعلمت أبي عن كل شيء يتعلق بذلك الرجل . اسمه وعنوانه وظيفته وسنه وعائلته وأسرته ..

عاد أبي في ساعة متأخرة ، وقد أغلقنا التلفاز ، ولم نسمع المذياع . كانت أمي مهمومة ، وأنا أتساءل ماذا يجعلها تسقط هكذا في بئر الهم العميقة .

عاد أخي موشيه من الخارج ، ولما سمع النبأ ،وتأويلات أبي في أسباب غيابها ، بدا هو الآخر كمن يكبت ثورة . إنهم ضد حرية العقيدة هؤلاء الناس . وماذا لو عرفوا أنني أريد أن أتزوج من علياء المسلمة .. ستكون الطامة الكبرى إذا عرفوا بل قد تكون أزمة صغرى لأني رجل . لكن لو انسقت وراء مطالب علياء ، ودخلت في الإسلام ، فهذه هي المصيبة التي لا بعدها ولا قبلها مثيل .

ظهر وجه أبي الأبيض كأنما مسه الغبار ، فجعله أسود كظيماً . وقال : سألت في أغلب المستشفيات وساعدني أحد المعارف أن أسأل في المطار عرفت لتوي أنها سافرت على طائرة إلى نيوزيلندا . سألت عن اسم الشاب الذي تعرفه هل سافر هو الآخر . أجاب الشاب الذي ساعدني : لا لم يسافر . لِمَ تذهب إلى نيوزيلندا ؟ ! ...

سأله :موشيه : ألم تجد الشاب في بيته ؟

قال أبي وهو مضعضع : لا لم أجده . قيل لي إنه ترك منزله منذ أسبوعين تقريباً . أين ذهب ؟ .. لم يعرف الجيران شيئاً ، سأذهب في الصباح إلى عمله لأن الوقت متأخر .

في اليوم التالي ، عاد أبي أكثر ضعضعة . وقال كلمة واحدة : لقد استقال من عمله . ذهبت إلى عمل جوديثا . هناك في المستشفى أكدوا لي أنها في إجازة اعتيادية لمدة شهر . هل تكون هربت إليه أو أنها في حالة نفسية كئيبة ففضلت أن تسافر في رحلة إلى

الخارج دون أن تقول لنا .. كأنها لم تكن ابنتنا . وليس بينها وبيننا أي علاقات سابقة . لا قرابة ولا حتى معرفة .
هززت رأسي وأنا أقول لنفسي : ذلك جزاء محاولة السيطرة علـى إنسان . إنه ينفض كل أسباب السيطرة عـن كاهلـه ويمضـي . يحاول في البداية أن يقاومها فإذا فشل .. هرب منها .
هل جوديثا مثل للإسرائيليات ؟ .. يغادرن البلاد دون عـودة ؟ .. ومن قال إنها غادرتها دون إياب ؟ ..

(١٤)

قررت أن أواجه الموقف . أواجه ذلك الرجل المتسلط جوزيف آلون . كنت في البداية أريد أن أرد إليه خطابه . وأكتب نفس الكلمات التي كتبها ، لكن وجدت أنها فكرة ساذجة لن يكون لها أثر يذكر . سألت جولدا هاتفيا : أين يسكن ذلك الرجل صديقك ؟

قالت : لعلمك أنه ليس صديقي . إنما يفرض نفسه عليّ . يتبعني بعد العمل أينما ذهبت . أجده أمامي . ولا أستطيع ان أفعل معه شيئا . أنا أعرف نفوذه وأخشاه . إنه يسبب لي الخوف والرعب . أنا لا أستطيع أن أفعل شيئا .

استغربت موقفها وقلت : ولم لا تبلغين الشرطة ؟

قالت : وماذا ستفعل الشرطة معه ؟ . . إن أصدقاءه كثيرون في جهاز الأمن .

قلت : هل هذا كلام يا جولدا ؟ .. ثم سألتها : إذن اعطني عنوان عمله أو عنوان سكنه . قالت : انا أعرفهما ولكني لم أذهب إليهما أبدا . أعطاني إياهما وطلب مني أن أزوره ولكني لم اذهب إليه .

قلت : هذا رجل غريب . وأنت أغرب منه مادمت تتقبلين هذا الوضع .

قالت : ماذا أفعل ؟ .. انتظر حتى آتيك بالعنوان .

طرقت الباب ثابت الجأش . لم أكن أخاف منه ، لم تحرك مشاعري سمعته حتى أخاف . قلت :

- ألا تذكرني ؟ هز رأسه وقال : نعم . أنت بن إيجال . أليس كذلك ؟

دفعت الخطاب إليه وانا أقول : تلقيت هذا الخطاب منك ؟

فتحه وقرأ . لكن وجهه كان جامدا . قال : أنا لم أرسل هذا الخطاب .. تفضل ..

كانت مقتضيات المواجهة أن أعتذر وأمضي مادام أن الرجل قد أنكر . بيد أني دخلت لأسبر أغوار الرجل ، ولو أن ذلك كان جرأة مني لعلمي بقسوته وبطشه .

في حجرة جلوس أنيقة جلسنا معا . استقبلني برقة متناهية ، جعلتني أشعر بالشك فيما قيل عنه . أيكون ذلك الرجل ذا وجهين ؟ ! . وجه ذئب مفترس في الباطن أو يظهر كذلك بين المعتقلين . ووجه ملاك رحيم في الظاهر أو يظهر كذلك بين اليهود . قلت له : لما وصلني هذا الخطاب الذي قرأته ظننت أنك مرسله . أنت تعرف أنني كنت حبيب جولدا منذ خمس عشرة سنة بل أكثر من ذلك . وقد تورطنا في علاقة عاطفية عميقة . دفعتنا لأن نكون جسدا واحدا . وقد أنجبت مني ابننا اسحاق . ولما كانت العلاقة السابقة غير شرعية ، لذلك وجدت – مادامت قد أنتجت ثمرة – أن اجعلها شرعية رأفة بمستقبل اسحاق .

قال كأنه شاعر يتغنى : جولدا هي واحة حياتي . هي الخضرة التي ملأت صحراء وجودي . هي الماء الذي أرتوي به في يوم قائظ . فهل أقف مكتوف اليدين وأمل وجودي يطير مني ؟

قلت : ولكني أريد أن أهيء مستقبلاً شريفاً لولدي منـــها . وهـــي أيضاً تريد أن ندخل معاً لهذا المستقبل .

قال : الأمر لها . نسألها .

قلت : لكنها قد تتحرج منك . قد لا تجيب . المطلـــوب منــك ألا تتدخل .

قال : إنك إذن سوف تحرمني من الهواء الذي أتنفســـه .. ســـوف تقضي علي .

قلت : عود نفسك على أنها ذهبت من يديك . وسوف تجد الأمـــر سهلاً . لقد كنت لا أطيق بعادها لكن رغبتي في الهجرة جعلتنـــي أتحمل وطأة الحب المقتول .

سأل : تقول الحب المقتول . من منا أحـــق بـــها . مـــهاجر مـــن إسرائيل لن يبقى فيها . أم مواطن فيها لن يبرحها ؟ ! .. ألن تعود إلى أمريكا مرة أخرى ؟

قلت : هذا وارد .

قال : إذن سوف تتركها هنا .

قلت : لا سآخذها معي .

قال : أعتقد أن جولدا تتمسك بالأرض ولو على حســـاب حبـــها . ألست تظلمها في هذه الحالة ؟ ..

قلت : إذا جاء معي بن وأرادت البقاء فلا مانع عندي .

قال : أنت تتكلم بعقل في بعض الأحيان .. وبعاطفة فـــي أحيـــان أخرى .. إنني أهيب بك أن نحتكم إلى جولدا ذاتها فهي التي سوف

تقرر . نعرض عليها حب كل منا .. وعليها أن تختار الأكثر قربا إلى قلبها .

قلت وأنا أنهض : هذا ما أردته . لا التهديد بالقتل .

رأيت في وجهه براءة ، ويقول : ربما شخص آخر يحبها يهددك .

لست أنا الذي أرسل الخطاب . فمن إذن الذي أرسل الخطـــاب .. عاشق آخر ؟

(١٥)

تذكرت صديقي فاضل ذلك الدرزي الذي شارك معي التدريب في حرب كيبور ١٩٧٣ . وبينما قذفوا بي إلى أرض سيناء . ألقوا به إلى هضبة الجولان . وقال إنه كان ينوي أن لا يحارب عشيرته من الدروز في الهضبة ، لولا انه وضع في الصفوف الخلفية فلم يحارب ، ولم يقتل أحدا من بني جلدته . وحكى لي قصة التوأمين القوقازيين . أحدهما صار مملوكا لدي حاكم مصر . والآخر صار مملوكا في الجيش الفرنسي . وألتقيا في مصر جاء الفرنسي مع الحملة الفرنسية وتحاربا ومات أحدهما بيد الآخر . هذا هو حصيلة الاستيلاء على أراضي الغير ، والتفرقة بين الأهل والأحباب تكون النتيجة محاربة الأخوة بعضهما للبعض الآخر .

عرفت أن فاضل صار يعمل في مصلحة الإحصاء . وهناك توجهت إليه لأحصل على بيانات السكان في إسرائيل ، عسى أن تدلني بتحليلها على الموقف السكاني . وأعطاني إحصاءات الميلاد – الوفاة – الهجرة من وإلى إسرائيل . عدد السكان وذلك كله في سنوات مختلفة . تلك المتغيرات التي تحدد ما إذا كان شعب إسرائيل ينمو أم ينكمش . سوف يربو أم يضمحل .

استغرب فاضل أن اعود من أمريكا . لكني قلت له إنني أجرى دراسة عن إسرائيل . وأريد بعض البيانات . هز رأسه وقال : لا مانع .

أشار فاضل إلى نوعيات مختلفة من العاملين معه هاجروا إلـــى إسرائيل . ذلك الأصلع ذو النظارات السوداء جاء في خلال أزمـــة اقتصادية مرت بها بلاده . ولو أن بعض أولاده هاجروا إلى خارج إسرائيل بسبب الأوضاع الاقتصادية الســـيئة التـــي مـــرت بـــها إسرائيل . وأشار إلى آخر كثير الحركة يتنقل من حاسب آلي إلـــى آخر ، ويدق على آلته الكاتبة بإمعان ويشطب ويحذف ثم يضيف . لقد أدت الاضطرابات السياسية في بلده إلى أن يتركها ويأتي إلـــى أورشليم . وهذا الآخر ذو الوجه الأحمر الغليظ ذو الأوداج النـــافرة هاجر من الاتحاد السوفيتي مع هجرة اليهود مقابل أن يحصل ذلـــك الاتحاد على مركز الدولة الأكثر رعاية تجاريـــاً مـــع الولايـــات المتحدة ومقابل صفقات القمح المتعددة . ورفع الحظر التكنولوجـــي والعلمي المفروض على الاتحاد . أما ذلك الأسود فهو من الفلاشـــا الذين جاءوا من أثيوبيا مقابل أن تحصل علـــى بعـــض المـــال . وهمس فاضل في أذني أن هناك بعض اليهود جاءوا إلى إســـرائيل للدفاع عن الأيدولوجية الصهيونية وليكونوا ذخيرة لجيش الدفاع .

سألته : ولم لم تهاجر من إسرائيل ؟ ..

قال : أنا من الصابرا كما تعلم . مثلك تماماً . ولو أنك هاجرت من إسرائيل . ولا نية أن أترك وطني ومتمسك به إلى آخر قطـــرة من دمكم .

ضحكنا .

قلت : أنت درزي . ألا تريد ان تهاجر حتـــى تـــترك الوســـط اليهودي الذي تعيش فيه ؟ ..

قال فاضل منفعلا : سوف أبقى .. حتى تذهب ريحكم جميعـــا . نحن سنؤسس دولة درزية هنا في إسرائيل .

ضحكت وكانه يقول نكتة لا شك فيها .

قلت له : طالما أن الهجرة إلى إسرائيل تتدفق فإنكم ستستمرون أقليات لا ضرر منها . أذكر أن الهجرات اليهودية خلال الفترة من القرن الماضي حتى تاريخ نشأة إسرائيل بلغت حوالي ســـتة آلاف يهودي . بنوا القواعد المادية والبنيات التحتيـــة وأدخلـــوا رؤوس أموال هائلة فكان لهم النفوذ الاقتصادي في البلاد . ومكنهم ذلـــك من السيطرة على الأراضي واحتكار الاستثمارات . كما زاد عـــدد اليهود على العرب ، فكيف انتم الأقلية يمكنكم ...

قاطعني قائلا : هذا أمل .. قد لا يتحقق .

المهم أخذت البيانات عن السكان في إسرائيل وذهبت لأبحثـــها في حجرتي وحدي .. وأصل إلى نتائج بناء عليها أختبر بها مـــا افترضته .

(١٦)

اجتمعت مع أصدقائي القدامى ، استطلع منهم بطريقـــة ســرية اتجاهاتهم في الحياة . ومنها أحكم على مستقبل إسرائيل . صديقــي نيكلوف .. هو حفيد من أحفاد أحد اليهود القدامى في إســـرائيل . جاء ذلك الجد من روسيا هربا من اضطهاد القيصرية في روسيا . فقد تمكن بعض اليهود العدميين أو الفوضويين من اغتيال قيصـــر روسيا الكسندر الثاني فأنفجر العداء ضـــد اليـــهود فـــي روســيا القيصرية . بل امتد إلى دول اوربا الشرقية . لم يجـــد وســيلة إلا التسلل بامرأته وأطفاله عبر الجبال والوديان القفرة . ومن تركيـــا استطاع أن يصل إلى فلسطين . كان تفاخره دائمـــا بـــأن عائلـــة ماكميلانوف تمكنت من الفرار من أيدي الطغاة . كانت الهجرة عام ١٨٨٢ لذلك لم تطل الأسرة قرارات السلطان عبد الحميد الثـــاني التي حالت دون هجرة اليهود إلى أرض الميعاد بعد عام ١٨٨٧ ، لذلك كان يعايرني دائما بأنه من أهل البلاد . أما أنا فنتاج هجـــرة حدثت في الأربعينيات من هذا القرن .

أما الصديق الثاني فكان عمانويل . وهو مـــن أصـــل روســـي أيضا. دخل جده الأكبر ليؤدي طقوس الحج في أورشـــليم . ولـــم يلبث إحدى وثلاثين يوما كما قرر مرسوم الحكومة العثمانية إنمـــا زاغ بين الناس . وكان يحمل معه بعـــض الروبـــلات الذهبيـــة ، واشترى بها أرضا بالقرب من القدس ، ومارس الزراعة ، ولـــم يتنبه أحد إليه ، واستقر يزرع ويحصد ويستثمر . وترك لأبنائـــه

وأحفاده من بعده أموالاً طائلة . ذلك هو عمانويل صاحب المزرعة القريبة من القدس ، والتي آلت إليه بعد وفاة أبيه . ودعانا إلى زيارته فيها .

كنت أنا من سلالة المهاجرين إبان الانتداب البريطاني ، حيث فر والدي مع الفارين من ألمانيا ، وإذا كان أبي فر من ألمانيا ، فإن بولينسكي قد فر من بولندا بسبب موجة الاضطرابات السياسية التي عمت بولندا . ولعلنا جميعا دون استثناء قد جمعنا جيش الدفاع . وتعارفنا هناك . مثلما تعرفت بفاضل الدرزي . لكني في هذا الحفل الكبير الذي أقامه عمانويل في مزرعته احتفالا بقدومي إلى الأراضي المقدسة مرة ثانية . كانت هناك وجوه لم أتعرف عليها من قبل وعرفني بها واحد اً بعد الآخر . وكان البعض منهم قد جاء مهاجراً إلى إسرائيل بعد قيام الدولة .

كان هناك صموئيل اليمني . وقد جاء أجداده هاربين من الاضطرابات السياسية في اليمن . وهناك صموئيل آخر جاء من بلغاريا . ويسرئيل جاء من رومانيا . خليط غريب من الجنسيات كأننا في أمم غير متحدة .

لم يكن الاحتفال خاليا من الجنس الآخر . كانت هناك أمريكيات يهوديات تلتصق كل واحدة منهن بزوجها أو عشيقها أو صديقها . وبريطانيات يهوديات تمسك كل واحدة منهن برجلها كأنما تخشى أن يفر منها . وكان يهود الفلاشا يقومون بخدمة الزائرين . بينهم فتاة مليحة لم أعرف اسمها ، كانت عيناي تتبعاها بشغف رغم أنها

كانت سمراء ذات شعر أكرت .. مجعد .. لكن عينيها السوداوين الواسعتين لم أر مثلهما من قبل تلفت نظري . وحسدت عمانويل على أنها تعمل لديه .

كان هناك أيضا أحد سكرتيري السفارة البريطانية كأن عمانويل لا يريد ان يقطع الصلة بيننا وبين بريطانيا " إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف نحو تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وستبذل كل جهودها لتسهيل تحقيق هذه الغاية على أن يفهم جليا أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يضير الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلاد الأخرى " . تذكرت وعد بلفور وأنا أصافح السكرتير الدبلوماسي البريطاني . وعمانويل يعرفني به . مهاجر من إسرائيل . يضحك ويقول : يقيم في إسرائيل . تذكرت الوعد الذي فقد ثلثه وأكل ثلثه الثاني وثلثه الثالث فيبدو أن سيطرة اليهود على اقتصاديات الدول الأوربية والأمريكية زادتهم قوة .

***

وجدتها تنتظر أحدا يراقصها . تقدمت منها . تقدمت بخطوات ثابتة لا تعرف التردد . كنت قد تعلمت الشجاعة مع المرأة في أمريكا . قبلت على الفور . ضممتها فلم تمانع . سألتها : هل أنت يهودية ؟ .. قالت : لا .. أنا درزية . قلت : إن لي أصدقاء كثيرين من الدروز . لكن لا أعرف أين هم الآن . سألت : كيف

ذلك ألا يخطرونك بتحركاتهم . قلت : أنا مهاجر من إسرائيل . عدت في رحلة قصيرة . أزور أمي وأبي وأخوتي . ثم أعود ... قاطعتني دون أن اكمل : إلى أين ؟ .. قلت : أمريكا .. أعمل في أحد المصارف هناك .

بعد أن هدأت الموسيقى ، انتحيت بها جانباً . وتركت بقية الأصدقاء سواء لأنهم انشغلوا عني أو لأني انشغلت عنهم . قالت : هذه أول مرة أرى مهاجرين من إسرائيل !.. قلت : هناك كثيرون . قالت : لقد درست الهجرة إلى إسرائيل . واتضح أنها كانت قليلة قبل الانتداب البريطاني ثم زادت وزادت كثافتها بعد نشوء الدولة الإسرائيلية . قلت أحدثها : كانت الهجرة شديدة في أعقاب ظهور النازية في أوربا . كما زادت أيضا من جهة الشوق بعد الاعتراف الدولي بإسرائيل . وكل ذلك يرجع إلى الحركة الصهيونية المهتمة بأرض الميعاد وتعميرها . قالت توضح : سمعت أن الجستابو الألماني كان متفقا مع الحركة الصهيونية لدفع اليهود إلى الهجرة من ألمانيا . كان يتظاهر باضطهاد اليهود حتى يفروا من ألمانيا دون أن يدفعهم أحد للهجرة . لم يكن أمامهم غير أن يغادروا البلاد خشية الاضطهاد الظاهر . مع أن الاضطهاد صوري بدليل أن هناك كثيرين فروا من هناك .

قلت متفاجئا : هذه نظرية جديدة لم اسمع بها ثم سألتها : وهل هناك اتفاق بين السلطات العربية والصهيونية من أجل تسفير اليهود من البلاد العربية ؟ ... ضحكت وقالت : لا . عن

الحكومات اضطرت إلى تسفيرهم بعد أن اجتاحت المظاهرات في معظم البلاد . تونس المغرب الجزائر والعراق . فالأخيرة مثلا عدلت قانون الهجرة بها وسمحت لليهود بالهجرة من العراق .

أردت تغيير مجرى الحديث وسألتها :هل أنت متزوجة ؟

قالت : لا ..

سالتها : ألم تتزوجي أبداً ؟ ..

قالت وعيناها تضحكان : لا .. لم أدخل الدنيا بعد .

سألتها : ما اسمك ؟

أجابت : أسمهان .

قلت لها: أنا بن .

ضحت وهي تقول : بن جوريون .

قلت : لا .. تشابه أسماء .

سألتها بعد فترة صمت طويلة . وأنا أتأمل عينيها الخضراوين . وشفتيها الصغيرتين . وصدرها الأبيض المكشوف للجميع : هل تعملين ؟

قالت نعم .. أعمل .. في السينما والتلفزيون .

سألتها : ألا يوجد لديك أوقات فراغ .

قالت : في بعض الأحيان . في هذه الأيام مثلا ننتظر قبول سيناريو معين . ثم ننتظر أن يبدأ التصوير فيه ، حتى أشارك في عمليات المونتاج . استغربت قائلا : مونتاج . قالت : نعم .. أنا

أتمكن أن أصنع منك قديساً وأصنع منــك فاســقاً .. مــن خــلال المونتاج . قلت مقلدا المصريين : يا رب أستر .

(١٧)

بعد أن انتهت الحفلة ، جلست مع الأصدقاء نتناول كؤوسا من الفودكا ، فقد كان المضيف عمانويل يحن إلى أصوله الأولى أو جذوره . ورغم أنني أكرهها غير أنني جاريتهم وشربت نخبا او نخبين . وتطرق الحديث إلى موضوع استيعاب المهاجرين إلى إسرائيل . والأزمة التي تحيق بالاقتصاد من جراء ذلك. قال نيكلوف : أعتقد أنه آن الأوان أن تتوقف الهجرة إلى إسوائيل وإلا سنجد بيننا الجياع والمشردين والذين لا يجدون قوت يوم واحد .

قال عمانويل : كيف ذلك . وأرض الميعاد مفتوحة لكل مهاجر يهودي إليها ؟ . .

تدخلت قائلا : إذن عملت طيبا إذ انني هاجرت . حتى لا أثقل على الاقتصاد الوطني .

تدخلت أسمهان ، وكانت لا تزال جالسة ، تضع يدها في يدي وتجلس بجانبي كأنما نحن الاثنين صديقان حميمان منذ زمن : قرأت مرة لرجل اقتصاد كبير أن الهجرة إلى إسرائيل سوف تؤدي إلى وضع مأساوي بسبب عدم قدرة الاقتصاد على استيعاب المهاجرين . وقد يؤدي الأمر إلى كارثة كبيرة . وأدخلت ذراعها في ذراعي كأنما أصبحنا جسدا واحدا بهذه السرعة زالت الكلفة بيننا ! ..

قال صموئيل اليمني : لن يمضي وقت طويل حتى نشاهد المطالبين بالخبز والعمل . وسوف تنتشر فينا أجواء اليأس

والإحباط . إلا أننا وصلنا إسرائيل منذ زمن بعيد ، لكنا الآن نبحث في الشوارع عن العمل وعن كسرة الخبز . ثم أردف صموئيل : العمل والمأكل ليس مشكلة ، المشكلة الكبرى هي المأوى .. ألم تلاحظوا الأزمة الطاحنة حينما قدم اليهود الروس من الاتحاد السوفيتي . كيف قدرت الميزانية أربعين ألف مهاجر . وبعض الجهات قدرت أنهم ثلاثة أمثال ذلك العدد المقدر في الميزانية ، فكيف سيتسنى إسكانهم ؟ ..

استغربت منهم الحديث وهم سكارى . وبدا أنهم يتكلمون بجدية . ومن المفروض أن يكون الهزل في جانبهم . لكن يبدو أن أكواب القهوة افاقتهم وجعلتهم ينحرفون نحو مشاكل الساعة .. وكل ساعة .

قال عمانويل : أعتقد أن المهاجرين مستعدون للإقامة في خيام .. بشرط أن نوفر لهم فرص العمل المجزية .

وساءلت نفسي : إذا كان الوضع سينفجر في إسرائيل . ألا يؤدي ذلك إلى العودة إلى الشتات ؟

لما انتهت المناقشات . طلبت من عمانويل أن يحدد لي الحجرة التي سأنام فيها . قال : إنها مخصصة لك

كان بعض الضيوف قد رحل بسيارته ، والبعض الآخر كان على موعد للاستضافة . فقد كان اليوم يوم الجمعة ، وغدا السبت : يوم تتوقف كل الأعمال ويخلد الإنسان إلى الراحة والصلاة والتعبد .

تركتني اسمهان إلى لقاء في المدينة في اليوم التالي . عرضت علي أن توصلني إلى المدينة ، غير أنني اعتذرت ، وذلك لأنني وعدت عمانويل بالبقاء عنده زهاء يوم كامل مع المبيت .

قادتني زوجه إلى الحجرة ، وهو يدخل إلى الحمام ليرش وجهه بالماء ، ويبلل شعره حتى يهرب الصداع الدائر في رأسه .

التقيت بأسمهان في اليوم التالي . استغربت أنني أتعرف هذه الأيام على بنات لسن من ديني . الأولى علياء مسلمة . والثانية أسمهان درزية . والدروز يتغلغلون في المجتمع الإسرائيلي ...

قالت أسمهان تجاذبني أطراف الحديث : هل تشاهد تمثيلية رأفت الهجان التي تذيعها القناة الفضائية المصرية مترجمة ؟ قلت : أنا لا أشاهد التلفزيون في الوقت الحالي . قالت : إنها عن جاسوس زرعه المصريون في أرض إسرائيل .. قبل حرب اكتوبر .

قلت : إذا كانت مصر زرعت جاسوساً . فإننا زرعنا في سوريا ومصر نفسها . ألم تقرئي عن الجاسوس باروخ نادل الذي أستأجر شقة في مصر قرب المطار العسكري في القاهرة . كانت له صلات قوية مع قادة سلاح الطيران . وهو الذي دبر عملية ضرب المطارات العسكرية في مصر . والمدعو إيلي كوهين .

قالت : نعم سمعت عنه .

قلت مستطردا : إيلي كوهين هذا .. انتقل من الارجنتين كتاجر سوري . وبلغ أعلى المناصب في سوريا . وصاحب كبار رجال

الدولة . لولا أن المسئولين بالهند شكوا فيه وابلغوا سوريا بشـأنه ، لكان سيطر تماما على أقدار السوريين في سوريا.

(١٨)

اتضح لي أن جولدا ذات البراءة ، عركتها السنون ، وتحولــت إلى امرأة خبيثة . عرفت أنني لن أبقى في إسرائيل ، فأوحت إلــيّ أن لا مانع من أن تقترن بي . حتى إذا ما طلبت منها أن تنضــم إليّ هي وولدنا ، ونعيش معًا في حي بوركلين فــي نيويــورك ، رفضت بإباء .. تأبي أن تترك أرض الأجداد . وبذلك امتنع عــن تحقيق اتحادنا معًا . وتتمكن في هذه الحالة من أن تفوز بجوزيــف آلون . ولكن يبدو أنها استمرأت العزوبية ، وتطلعت إلى الحرية ، فرفضت الاقتران بجوزيف . رغم أنها استمرت تدعي أنه يلاحقها ولا تستطيع منه فكاكًا .

من أجل ذلك كان حديثي مع أسحاق .. ولدي منــها . حديثًــا عاقلاً . قلت له : إنني لا يمكــن أن أبقــى هنــا لأن مصــالحي تتعارض مع بقائي . وأنا اعترفت بك ولدًا . فهل تلحق بــي ؟ .. قال أسحاق بتعقل : حينما انتهي من الدراسة الثانوية انتقل إليك في نيويورك لأدرس في الجامعة . وأقرر بعد ذلك ما إذا كنت ســأبقى أم سأعود .

قلت له : هذا كلام إنسان عاقل وأنا أقبله . ومستعد لدفــع كــل مستلزمات دراساتك ومعيشتك حتى تشب رجلا . ضمني إليه وقال : أشكرك يا أبي .

لم أحاول أن أثير عواطف جولدا الخامدة . وكان مــن الســهل تحريكها . شعرت أن حبي نحوها مات ، والإنسان لا يســتطيع أن

يبعث ميتًا ، فكيف أبعث هذا الحب ؟ .. وكانت تتصل بي من حين لآخر لنخرج معًا فأتعلل بمقابلات مختلفة مع أنـــاس لا تعرفـــهم ، وأتهرب منها . أدركت أنني أسقطها من فكـــري ، فكفـــت عـــن الاتصال .

أصبحت في حيرة بين علياء التي أصبحت أكن لـــها شـــعوراً دافئًا . وبين أسمهان التي أصاحبها رغبة في أن تصحبني امـــرأة دون أن أشعر بهذا الدفء في الشعور نحوها .

بينما أنا أمضي بين هذين الشعورين ، كنت أقـــوم بتجميـــع المواد التي سوف ابني عليها حكمي على بقاء أو فناء إســـرائيل . كتب كثيرة تتعلق بالتنمية في إســـرائيل . والشـــعب الإســـرائيلي والسلطات الإسرائيلية . وجدت أن من الممكـــن أن اعـــثر علـــى ضالتي في هذه الكتب لأن الوقت لا يتسع للتجول وســـط النـــاس واستطلاع مرئياتهم . وهناك في نيويورك من الممكـــن أن أقـــرأ وأضع حكمي النهائي في بقاء أو فناء إسرائيل . ولو أن حكمـــي سيكون شخصيًا أكثر مما هو موضوعي .

(١٩)

كانت علاقتي بأسمهان علاقة غريبة . كنت لا أستطيع أن أرفض لها طلبًا في اللقاء . وكنت في نفس الوقت لا أشعر بلهفة على اللقاء لكن ذلك لم يصل إلى درجة الامتعاض . طلبت مني اللقاء في شقتها الصغيرة . في إحدى المباني الكبيرة التي أُنشئت بعد تحويل أورشليم عاصمة الدولة . كانت تتكون من حجرتين وصالة ودورة مياه ومطبخ . ولم يكن هناك أحد يعيش معها . كان أهلها يعيشون في حيفا . ولم يكن من تقاليدهم أن يضموا إليهم بنات العائلة ويحجبونهن عن الناس أو يمنعهن من العيش بمفردهن .

قدمت لي نفسها في البداية ، غير أنى أعرضت كأن هناك عقدة تكونت لدي بعد اكتشاف أنني تركت بذرة في رحم جولدا . كنت سببًا في وجود ولد دون أب شرعي . جثم على قلبي الخوف فمنعني من تكرار المأساة مرة أخري . فشلت يدي أن تمتد إلى إهابها الغض . وأن تتحرك في مناطق وعرة محفوفة بالمخاطر . ولم تتعد العلاقة بيننا غير القبلات . كان الماضي يطاردني ويمنعني من أن أكرر ما أطلبه في الوقت الحالي . رغم أن علاقتي بالأمريكيات كانت متعددة ومتعمقة لكن المفاجأة لجمت اندفاعي .

علاقتي بالأمريكيات كانت متعددة ومتعمقة لكن المفاجـــأة لجمــت اندفاعي .

سألتني أسمهان : هل أنت عنين ؟

قلت : لا .. أنا ضنين . أضن على الرذيلة بمجهودي .

سألت : أتخشى أن انجب ولداً سفاحًا .

– ربما .

–لا تخف إن المرأة الحريصة تحول دون ذلك .

- ألا تعدين ذلك الاتصال زنا ؟ .. ألم يحرم دينكم الزنا ؟

– كان القصد ألا تختلط الأنساب .

– نعم .. لكن في الوقت الحالي يمكن أن نمنع الاختلاط . –

– إن معني كلامك أن يباح للمرأة العقيم أن تزني . وللمرأة الحريصة التي تستعمل حبوب منع الحمـــل أو اللولـــب أو غيرها من الموانع أن تزني ، لأنه لن يكون هناك حمل ومن ثم لا اختلاط في الأنساب .

– أنا اعتقد أن الزنا حرام حتى لا يحنث أحـــد فـــي العقـــد المبرم بينه وبين امرأة تزوجها .

– إذن فأنت توافقين على الزنا بين رجـــل غـــير مـــتزوج وامرأة غير متزوجة .

قالت إجابة غامضة : إن الرضا أهم عنصر . والحب يصنع الرضا .

- هل هذه فلسفة من العقيدة ؟ ..

- لا .. إنها فلسفتي . لكن إذا فُرض وتزوجنا فلـــن أقبـل أن ازني مع آخر . سأوقف نفسي من أجلك . ولن يكـــون عرضـــي مستباحا .

- فهمت .

لكن رغم هذه التبريرات امتنعت عن أن امسسها . شـــربنا الشاي ثم القهوة . ورفضت أن أشرب الخمر . حتى لا يغيـــب وعي ، ولم تستهجن مسلكي . سألتها : هل اتصلت بآخرين ؟

أجابت : لا ..

سألت : لم ؟ ..

قالت : لأني لم أحب أحدًا . كيف أتصل بآخرين . هل أنـــا عاهرة ؟

فاجأتني الكلمة . وسكت فترة طويلة أفكر في فلسفتها .

(٢٠)

لم تسطع أسمهان أن تنسيني علياء . كانت صورتــــها تلـــح علي في يقظتي ومنامي . وأنا أجمع الكتب من هـــذه المكتبـــة وتلك . فكرت أن أنالها وأن أرضيها قبل أن أنالها . كيـف ؟ .. أن أصبح مسلمًا . ألا يكفيها أن أقر أمامها أنني مسلم . أم أنـــها ستطلب الطلاق بعد ذلك لأني صرت مسلمًا اسمًا . مع أنــــي لا أؤدي الفرائض كالصلاة والصوم .

طلبتها هاتفيًا وقلت لها : إنني سأقوم برحلة قصــــيرة إلــــى مصر .

قالت : والله .. إنني أيضا سأقوم بهذه الرحلة .

قلت :كنت سأشتري بعض الكتـــــب غـــير المتوافـــرة فــــي إسرائيل .

قالت :أما أنا فسوف أتتبع المعركة الانتخابية في مصر .

سألتها : ومالك أنت بالانتخابات المصرية ؟

قالت : ألا تعرف أنني صحفية ؟

اندهشت قائلاً :معقول .. هذه أول مرة اسمع ذلك

وتذكرت أنها قالت لي شيئًا من ذلك من قبــــل . وســـمعتها تستطرد قائلة : إنني حاصلة على ليسانس الآداب قسم اللغـــــة الإنجليزية . وأعمل صحفية في جريدة عربية تصدر في القدس

وقد أرسلتني الجريدة التي أعمـــل بـــها لمتابعـــة المعركـــة الانتخابية .

قلت : إنها ليست معركة يا سيدتي . إن الحزب الحاكم فـــي مصر هو دائمًا صاحب السلطان والأغلبية .

سألت : كيف عرفت هذا ؟

قلت : من قراءاتي المستمرة . لم يحدث في يوم ما آن استطاع حزب آخر أن يفوز . اتركي الانتخابات المصرية . وتعالي معـــي نتزوج . وننطلق إلى فلوريدا لنقضي الصيف والشـــهر العســـلي هناك .

سألت : أتريد أن تفعل بي مثلما فعل ملك شكيم بدينا ؟

استفسرت :ماذا فعل ملك شكيم بدينا ؟

قالت : إنها بنت النبي يعقوب عليه السلام . تزوجها ملك مملكة اسمها شكيم وطلب من أبيها أن يبارك هذا الزواج ، لكنه رفـــض بداية . ثم تدخل المكر الإسرائيلي فطلـــب منـــه أن يتـــم تختيـــن المواطنين بالمملكة كلهم على أمـــل أن يرفـــض ، لكنـــه فوجـــئ بالموافقة . ولما تم تختين مواطنـــي المملكـــة هاجمـــهم اليـــهود فأبادوهم ، وتمكنوا من الاستيلاء على المملكـــة . لقـــد ذبحوهـــم وقطعوهم ومثلوا بهم . هكذا اليهود .

سألت : لكن الوضع مقلوب . اليهودي هنا ذكر وليس أنثـــى . وغير اليهودي أنثى وليس ذكراً

قالت : أريد فقط أن أصل معك إلى المكر الإسرائيلي ، فسوف تلتهمني كدجاجة ، ثم تلقي عظامي إلى الطريق .

قلت : لا .. أعاهدك .. هذا لن يحدث .

قالت : إن تاريخكم ملئ بالعهود المضروبة .

حتى تكون رحلة العمر ، قررنا السفر بالسيارة العامة ، سيارة سياحية كبيرة ، يركب معنا حوالي خمسين يهوديًا آخرين قصدوا السياحة في مصر . التصقنا في المقعد المشترك . وكل منا يشعر بأنه اصبح صاحبه . قلت لها :لم لم تتزوجي حتى الآن ؟

قالت : أنا لا زلت صغيرة .. أنت الكبير .

قلت : أنا لم أتعد الأربعين .

قالت : وأنا لم أتعد الثلاثين .. لقد رفضت كثيرين . لم يدخلوا مزاجي .

وسألت : وهل دخلت مزاجك ؟

قالت : يعني .. على الأعتاب .

قلت :إذن فسوف يحدث في يوم من الأيام أن تليني .

قالت : لا اعتقد . إن بيني وبينك حوالي عشرين قرنًا من الزمان .. تفصلنا بحور وأنهار ويابس لا نهاية له .

– أنت تخافين أهلك .

– لا .. أنا أخاف الله .

- لا .. أنا أخاف الله .
- أتضحين بقلبك من أجل عقلك . إن قلبك هذا هو الذي يضخ الحياة إلى عقلك . يضخ العاطفة غذاء الروح .
- هذا شعر يا فتى .. القلب والعقل كل واحد منهما لا يتجزأ . لا يجوز لأحدهما أن يطغي على الآخر .

كانت علياء تنقل إلي الأخبار أولا بأول عن سير المعركة الانتخابية في مصر . القتلى والجرحى والمزورون وأصحاب السنج والمطاوي . والضغط والإرهاب . أقشعر بدني من هذه الديمقراطية الوليدة . كانت تنقل لي أيضا أخبار الصحف القومية حيث تذكر النزاهة والحيدة والحياد . احترت فعلا بين صحف المعارضة والصحف القومية في مصر . من أصدق ؟ .. لا أدري .

قالت علياء بعد المعركة الأولى : حضر القليلون في المدن والكثيرون في الريف . يقولون إن المثقفين في المدن يمتنعون عن التصويت في الانتخابات . والريفيون يتجهون إلى قاعات الاقتراع العام زرافات . قلت : ربما التزوير غير سهل في المدن فتظهر الحقيقة واضحة ويبدو الإقبال على الانتخابات ضعيفًا . بينما يكون التزوير سهلاً في الريف فتكون أعداد المصوتين عالية . ، لأن الرقابة هناك ضعيفة وعمال الحكومة ينتهزون الفرصة ويسودون البطاقات الانتخابية . وهكذا يكون العدد قليل في المدن

كثير في الريف . وعمومًا أهل الريف مغلبون على أمرهم قد يشاهدون التزييف علنًا ويقولون إن هذا عمل من أعمال الانتخابات ، فهم لا يدرون لأنهم أميون .

قالت : لقد اكتسح الحزب الوطني عدد المقاعد . وصار أغلبها ينتمي إليه . تصور لم ينجح أحد من المعارضة . أغلب الفائزين من الجزء القليل من غير الحزب من المستقلين .

وعند إعادة الانتخابات قالت علياء :

لقد فاز الحزب الحاكم بأغلب المقاعد . بل إن المعارضة لم تحظ إلا بمقاعد قليلة . كما أن الذين دخلوا الانتخابات على أساس الاستقلال عن الأحزاب تقدموا بطلبات للانضمام للحزب الحاكم .

قلت : هذه ديمقراطية سلطة . لم أشهدها في العالم الديمقراطي من قبل . ولم لم ينضم المستقلون إلى حزب من أحزاب المعارضة ؟ ..

– ربما يفضلون الحزب الحاكم نظرًا لنفوذه وسلطانه ، ويمكنهم من خلاله تصريف أعمالهم إذا انتموا إليه .

– لم أر في إسرائيل شيئًا من ذلك ولا حتى في أمريكا . أمعقول أن يدخل أشخاص الانتخابات على زعم معين وينتخبهم الناخبون ثم يغيرون من ذلك الزعم مائة وثمانين درجة . بعد أن كانوا مستقلين يصبحون منتمين إلى حزب . هذا خداع للناخبين لم أشهده في أمريكا طوال الخمس عشرة سنة التي قضيتها هناك .

– لا تقارن بلدًا في سنة أولى ديمقراطية ببلد في سنة اثنتا عشرة ديمقراطية .

كانت ترسل رسائلها بالفاكس أولاً بأول عن الانتخابات المصرية ، لذلك كنت أراها في مكتب الهواتف ، وقد ترسل تعليقاتها من خلال الهاتف للجريدة التي تعمل بها . كنت أحيانًا التقي بها في بهو الفندق . ولا أحاول أن أصعد معها إلى حجرتها . بل لم تحاول أن تتصل بي وتأتي إلى حجرتي . كانت عفيفة تأبى أن تضع نفسها موضع الشبهات ، لكنها كانت تضاحكني وتناقشني ونسترسل في كلام الحب معًا . ولم أجوؤ أن ألمس يدها ، بل لم تشجعني على ذلك . كانت ندًا لي ، فأزداد إعجابي بها . وتذكرت أسمهان التي غرقت في الحب دون أن أشجعها على ذلك . وتمادت فيه لولا أنني صددتها . كانت تجربتي مع جولدا وما أثمرت تحول دون أن أندفع في الحب خشية أن انجب طفلاً آخر من العلاقات المحرمة فينشأ بلا أب .

كنت أبحث عن الكتب التي تخص الدين الإسلامي على أن تكون مترجمة باللغة الإنجليزية . وكانت مثل هذه الكتب نادرة في إسرائيل . وجدت بعضها في المكتبات ، وبعضها يباع في مكتبة الجامعة الأمريكية . وقد استقبلني البائعون بالترحاب والحفاوة خاصة حينما عرفوا أنني أمريكي ، ولم يعرفوا أنني إسرائيلي أصلاً . وأرشدوني إلى ما أريد . وكانت معظم الكتب مكتوبة

بمعرفة مستشرقين ، شعرت فيها بطعم التحـــيز خاصـــة للديـــن المسيحي .

كان الحديث بيني وبين علياء يدور عادة باللغة الإنجليزية وقليلاً ما كانت تتكلم اللغة العبرية رغم أنها تتقنها . أما اللغة العربية فلـم أكن أعرف منها إلا القليل . وقد تعلمت ذلك القليل من أصدقـــائي العرب الإسرائيليين . وفكرت أن أتعلم اللغة العربية حتى أكـــون قريبًا من علياء ، ذلك الحب الذي أصبح مستحيلاً .

يوم قررت أن أتقرب أكثر من علياء . دققت باب حجرتـــها ، فسألت من الداخل : من ؟ .. أجبت : أنا بن . ولما فتحت البـــاب لتستطلع ما أريد . حاولت أن أدخل فمنعتني . غير أنـــي حـــاولت مرة أخرى فصدتني . قالت : أرجوك أنا لا أقبل هذه التصرفات . تراجعت وأنا نادم لكن الندم لم يكن له اعتبار عندها .

في اليوم التالي لهذه الحادثة سألت عنها قال لي المستقبل فـــي الفندق : لقد عادت إلى بلادها .

يبدو أن الانحراف في سلوكي أذاها ففضلت أن تختفـــي مـــن أمامي حتى لا أتمادى .

(٢١)

ظننت أن بعد هذه المقابلات والأحاديث الشهية أنها سوف تقبلني . غير أنها لفظتني كما تُلفظ النواة . الحقيقة أنه لم يكن جائزًا أن أهاجمها في عقر حجرتها . غير أني تعجلت كالأبله دون أن أدرك عواقب الأمور . شحنت الكتب التي اشتريتها إلى صندوق بريدي في أمريكا . لم يعد هناك داع لقراءتها الفورية . فقد طار العصفور .

ركبت الطائرة إلى تل أبيب ، كنت أنوي أن ازور الأقصر وأسوان ، لكني اكتفيت بالزيارات التي أجريتها مع علياء .. للأهرام وسقارة ومتاحف الآثار الفرعونية والقبطية والإسلامية . كانت أيامًا جميلة قضيت عليها برعونة مني . كان يجب أن أعرف أن علياء شرقية السمات ، ومن الصعب عليها – مهما كانت ثقافتها – أن تستقبل رجلاً غريبًا في حجرتها ولو كانت احبته .

في الطائرة وجدت عمانويل عائدًا من القاهرة مهمومًا هو الآخر . سألته :مالي أراك مهمومًا ؟ ..قال يائسًا : يقولون إن هناك تطبيعًا بيننا وبين القاهرة . وقد كان الاستقبال لي رائعًا غير أني لم احصل على شيء رفضوا استيراد المزروعات التي ازرعها . قالوا إن في مصر نظائر لها . وستكون أغلى ثمنًا مما لن يسمح ببيعها .

سألت : مثل ماذا ؟ ..

قال : مثل العنب والبرتقال .. ثمار مزرعتي القريبة من أورشليم كنت أريد أن أتعاقد على تصديرها ، لكن خاب ظني .

سألت : ألا يوجد إلا في مصر .. حاول في بلاد أخرى .

نعم هناك تعاقدات لي مع إيطاليا وفرنسا وإسبانيا ، لكن الإنتاج الزائد لا يمكن تسويقه بأكمله في السوق الإسرائيلية . إن فتح أسواق جديدة يساعد على زيادة الإنتاج مما يساعد على خلق فرص عمل جديدة تساعد المهاجرين الجدد إلى إسرائيل على المعيشة . أذكر مثلاً رئيس بلدية حيفا هدد بغلق أبواب مدينته في وجه المهاجرين الجد د إذا لم تتوفر الحلول اللازمة لمشاكل الإسكان والتشغيل فوراً . أتعرف أين كان المهاجرون يقيمون ؟

سألت : أين ؟

قال : في الفنادق ريثما تُبنى لهم المساكن اللازمة .

قلت : سمعت أن هناك كثيرين من النصابين كانوا يجرون هؤلاء المهاجرين إلى حبائلهم على زعم أنهم يقدمون لهم الشقق الصالحة . ويفاجأ المهاجر بأن الشقة غير صالحة للسكن .

– كان الموظفون يقيمون بعمليات السمسرة لمساعدة المهاجرين على إيجاد شقق لهم .

- كنت يومًا في حيفا واضطرتني الظروف أن أبيت فيها . وخرجت أتجول فرأيت مهاجرين ينامون في أكياس النوم على الأرصفة في سلالم البيوت .. حتى يمكنهم

احتلال رأس الصف لإنجاز معاملاتهم لدى بنك عيدود .
شعرت بالأسى والحزن .
قلت : أهكذا يمكن أن تُؤسس الدولة . يزحمونـــــها بالبشـــر وليس لديهم خطة لإطعام هذا البشر وإيوائه .

(٢١)

يبدو أن جولدا كانت من المؤمنين أن الاستيطان في أرض إسرائيل واجب ديني ، بل اعتبرت أن استيطان أرض إسرائيل يوازي كل الفرائض . وكانت هذه الفريضة تصل إلى هدف دفع اليهودي أن يهاجر إلى هذه الأرض لذلك أُبتدع المبدأ الذي جعل رفض أحد الزوجين من اليهود الذهاب إلى أرض إسرائيل والعيش فيها مبرراً كافيًا حسب الشريعة للزوج لطلب الطلاق . فما بالنا بإنسان يريد أن يغادر إسرائيل مع زوجه تؤمن بهذه النظرية .

" إن عذاب اليهود وشقاءهم هما امتحان لإيمانهم ، وأن بداية حلول الخلاص تكمن في التطوع للذهاب إلى فلسطين بقصد الاستيطان وشراء الأراضي ، لأن استيطان البلاد المقدسة هو من أهم وصايا التوراة " . هكذا قال تسفي هيرش كاليشر حاخام الطائفة اليهودية في تورين بألمانيا . ورددها من بعده أبي إيجال . وورثها عنه ابنه موشيه إيجال .

تذكرت ذلك وجولدا تسألني أمام عيني جوزيف آلون :

– هل ستتزوجني وتعود إلى أمريكا ومعنا أسحاق ؟

قلت على الفور : وما المانع ؟ ..

أجابت بسرعة : أنا لن أغادر إسرائيل ، لذلك لا معنى لزواجنا .

رأيت الفرحة على وجه جوزيف . لم أصدق أن تقتل امرأة حبها عشقًا في أرض . ولم أمتعض من كلامها ، شعرت أني

تحررت من ثقل جاثم على نفسي . يبدو أنني كنت قد نسيت حبـي لجولدا خلال السنين الماضية ، ولم يعد الشوق إليها يعذبني . ومـا تفتح قلبي من جديد إلا بسبب وجود أسحاق . ما أردت لهذا البرعم أن يحيا حياة غير سوية ، يشير إليه الناس أنه ابن جـاء بطريـق غير شرعي . لكن أمه لا ترضى أن تنشأ هذه الرابطـة مـادامت ستحيى خارج إسرائيل . وفي نفس الوقت وجدت أن في التحـرر من جولدا تقربًا من علياء . ولو أن الأمل في علاقة وثيقة معـها ضعيف .

(٢٣)

أدرت قرص الهاتف ، جاءني صوتها الرخيم يقول : مـــن ؟ .. بادرتها قائلاً : لم غادرت القاهرة دون أن تخطريني ألم نذهب معًا وعلينا أن نعود معًا ؟ ؟ .. قالت لم يكن هناك وقت . سألت : ألـــم نغادر اورشليم معًا ؟ .. قالت : غادرنا القدس معًا صدفة . ســألت : هل غضبت مني لأني حاولت دخول حجرتك عنوة ؟ .. قـالت : لا .. قلت : أنا آسف لهذا التصرف . وأريد أن أقـــابلك لأعتـــذر لك . قالت : لا .. انتهى عقد اللقاءات . قلت : هل تعرفين لم كنت في القاهرة ؟ .. قالت : لا . قلت : كنت أبحث عن كتـــب تدلنـــي على الإسلام حتى إذا أسلمت أسلم عن اقتناع . قـــالت ســـاخرة : كيف بعد أربعين سنة تتحول من دين إلى آخر . قلـــت : إذا مـــا اقتنعت فسوف أسلم وأتقدم لك لأتزوجك . قالت : لـــن تلحـــق .. سوف أكون تزوجت آخر . قلت ضاحكًا : هذه خيانـــة .. خيانـــة لحبنا .

قالت : لقد أغتصب آخر قلبي واستولى عليه . لن يمكنـــك أن تقتلعه .. مثلما لم يتمكن أهل فلسطين من اقتلاع الصهاينة منـــها . قلت ضاحكًا : ألا تعلمين أن ابراهم قطـــع الـــرب معـــه ميثاقـــا قائلاً :لنسلك أعطك هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبـــير نهر الفرات . قالت : هذا كان منذ زمن بعيد .. وماذا يحدث لو أن زلزلاً دك هذه الأرض .. أو أنها طارت في السماء .. أو غرقـــت في البحر . أستقولون وقتها أن الرب أعطاكم قطعة أخـــرى . إن

كلامك لو كان صادقًا لترك الأمريكان أمريكا للـــهنود الحمـــر .. وعادوا إلى بلادهم . إنها مبررات من يغتصب الأرض .. ثم لقـــد كانت الأرض منقسمة بين إسرائيل ويهودا .. وكانت هناك مملكـــة شكيم وممالك أخرى ، فهل وعد الرب بالأرض الإســـرائيليين أم اليهود أو أهل يهودا . وأين هـــم الآن بعـــد أن أبـــادهم الغـــازي الروماني ؟ ..

قلت : أنا لم أرد لأني كنت أستمع لصوتك العذب الرخيم ، حتى لا أحرم منه ، لأنه سيعلق في ذهني إلى الأبد . فيبدو مـــن الآن أن الآوان قد آن لكي لا أسمعه أبدًا .

قالت : من حين لآخر حاول أن تتصل بي .. لتسمعه أنا أعطيه لك دون مقابل .

قلت : لن أتمكن فالمكالمات الهاتفية غالية في أمريكا خاصة إذا كانت عبر البحار .

(٢٤)

وضح لي من مكالمة علياء أنها قطعت الصلة بي ، فـآثرت أن ارحل إلى مدينة بعيدة عن أورشليم ، حتى لا أجد أصابعي تتحرك من أجل طلبها من جديد ، فتصدني . قررت أن أمضي إلـى تـل أبيب حيث منبت رأسي وعملي السابق .

دخلت هناك أحد المطاعم الفاخرة ، التي كنت لا أجـرؤ علـى دخولها في الماضي . كنت أخشى دخولها وأنا طالب وكذلك وأنـا موظف صغير في أحد بنوك المدينـة . أمـا الآن فـإن البطاقـة الائتمانية التي أحملها تساعدني على دخـول أي فنـدق فـاخر أو مطعم محترم .

ولما خرجت ، وأنا أتلقى هواء البحر العليل المغسـول بمـاء المطر ، التقيت بجون صديق الطفولة ، الذي تخصص في الهندسة النووية ، وسمعت أنه ألتحق بجيش الدفاع الإسرائيلي . أطلق نفير سيارته ، فألتفت إليه . نزل ليصافحني ويعانقني .. كم سـنة الآن مرت ولم أره !؟ .. إنها سنوات بعد أن تركت الجيش ورحلت إلى أمريكا مهاجرًا من إسرائيل . أين أنت ؟ .. إنني هنا .. لا أصـدق . لا كنت في أمريكا وعدت في زيارة . تعال لنتغدى معًا . إننـي منذ دقائق فرغت من تناول وجبة الغداء في هـذا المطعـم . إذن تعال لنشرب الشاي معًا . بعد أن آكل . أين أنت الآن ؟ .. إننـي أعمل في صحراء النقب لكن جئت من أجل إجازة قصيرة أقضيـها

مع زوجي . هل رزقتما بأولاد . لا .. للأسف . هي كما يبدو لـي عقيما . المهم أنكما سعيدان . لا أبدا .لم نكن سـعيدين . إذن مـا الداعي لأن يجمعكما بيت ؟ .. يبدو أنني لن أجد غيرها أتزوجـه وهي لن تجد غيري تتزوجه . وماذا تعمل في صحراء النقب ؟ .. أعمل هناك في المفاعل الذري . أحقا لدينا مفاعل ذري . هذا أمـو لا يخفى على أحد . معروف في جميع أنحاء العالم . إننـا لـهذا السبب لا نريد أن ننضم إلى المعاهدة المعروفة لوقـف التجـارب الذرية . . إذن فهذه مناعة ضد التفكك . وأي مناعة . لن تنتـهي إسرائيل . إن لنا الهيمنة العسكرية على المنطقة . وقد يكون لنـا الهيمنة العسكرية في المستقبل .

كل هذه الأحاديث دارت في رأسي مرة واثنتين . بينمـا تقـدم ريتا الشاي لنا . كانت من هؤلاء النساء اللاتي يعرضن بضاعتهن على الملأ . الصـدر النـاهد والفخـذان الأبيضـان والذراعـان البضـان . كان التكييف الساخن داخل المنزل يسمح لها بهذا التهتك كأنها تجلس عند شاطئ البحر في يوم قائظ . كانت ترمقني طـوال فترة جلوسي أمامها . كأنها تقيس قدرتي وحيويتـي وعضلاتـي وقوتي . وكان جون قد خلع حلته العسكرية وجلس ببنطلون جيـنز وفانلة رياضية . ولما نهضت لتعد لنا كعكة التفاح . بادرنـي قائلا : قد يكون السبب الذي يجمعنا هو ما قلته لك . رغم أنها باردة معي لدرجة كبيرة . كيف هي باردة ؟ .. إنها تمثال بارد . لا يعـرف العواطف الحارة . ولا الانفعالات الساخنة . لكن لا أجد غيرهـا .

أتمنى من الرب أن يرزقني بواحدة تعوضني حرمان السنين فلا أجد . ألا يوجد في المعسكر واحدة ؟ . . لا .. كلهن متزوجات . يبدو أن واحدة لم تنتظر وتبقى عانسًا حتى أتقدم منها . وإذا كانت هناك مطلقات فهن مرتبطات بآخرين . حظك غريب . وأنت ألم تتزوج ؟ .. لا .. لقد عافيت الزواج . أين تقيم ؟ .. أقيم في نيويورك . إن نيويورك مليئة باليهود . نعم . حي بروكلين مليء باليهوديات ، لكن العمل والتعليم شغلاني عن الزواج .

أصر جون أن أبقى . كنت أنوي أن أجد فندقًا وبعده أضع متاعي فيه وأخرج للتجول في أنحاء تل أبيب وأشاهد بيتنا القديم . وشارعنا التليد . وأشاهد ناسًا رأيتهم من قبل أو ناسًا حلوا بدلاً منهم . ثم أعود إلى الفندق . غير أنه أصر على استضافتي . فشقته واسعة . ولو أنها فارغة من البشر . لم تبد ريتا أي اهتمام .

استغربت أنها تنام وحدها في حجرة . وينام وحده في حجرة أخرى . ونمت في حجرة ثالثة . بها سرير ودولاب ومقعدين كأنما أُعدت للضيوف .

طرقت ريتا الباب . وحاولت أن تدخل لكني وقفت معترضًا . كانت ترتدي ملابس نوم شفافة . مستعدة لكل شيء . كيف تعامل زوجها ببرودة . وجاءت تعاملني بحرارة . لا أدري إذا كانت تنوي أن تخون زوجها في عقر داره أم أنها جاءت لترى ما إذا كنت أرغب في شيء ؟ .. قالت : أتريد شيئًا حارًا قبل أن تنام . تصنعت البلاهة وسألت : مثل ماذا ؟ .. قالت : شيء حار . ثم

استطردت : مثل الشاي .. القهوة .. قلت : لا . إن الشاي والقهوة يتعبان أعصابي قبل النوم . تقدمت مني وأنا لا زلت فاتحًا الباب واقفًا بجانبه : إذن أدفئ لك لبنًا . قلت : لا احتاج . أين جون ؟ .. قالت : إن جون قد نام . ينام مبكرًا أما أنا فيجافيني النوم . هل يجافيك أنت الآخر النوم ؟ .. فهمت أنها تريد فرض نفسها علي وتؤنسني .تريد أن تتسلل رويدًا رويدًا حتى تستقر في الحجرة معي . تريد أن تتعمق في العلاقة بيننا . لكن منذ زمن أرفض النساء بهذه الخصلة . النساء اللاتي يفرضن أنفسهن على الرجل . أردت أن أقفل الباب ، فقلت : أنا أيضًا مثل جون . يبدو أننا من عينة واحدة . ننام مبكرين .

شعرت بالخجل وانصرفت .

قررت في اليوم التالي أن أغادر الشقة رغم أن جون تمسك بي . وأصر أن أبقى معه . قلت له : إنني أريد أن انطلق وأنت تقيدني .

كنت أريد أن أبقى حتى اعرف الكثير عن سلاح إسرائيل واستفيد بمحاضرات جون عنه حتى أضيفها إلى أفكاري في الكتاب الذي أزمع كتابته لكن رفضت أن أبقى حتى لا أخون صديقي . وامرأته متعطشة للخيانة . لا أدري كيف تتحمل المرأة الخيانة وتحيى مع رجل لا يخونها . وأنت ألم تحاول الانقضاض على علياء لولا أنها صدتك . تهورت فعلاً ولم يكن لائقًا أن أفعل ذلك .

وتراجعت حينما أصرت على صدها . ولست خائنًا بطبعي حتـــى أطعن صديقي في ظهره ، ولو أن امرأته تراودني عن نفسي .

(٢٥)

أخذت أحلل حياتي وسبب هجرتي من أرض الميعاد وأنا أستقل سيارة أجرة من بيت صديقي ، ورجعت إلى الخلف قليلاً :

عقب اكتشاف بعض المشتركين أو المشايعين لإيجال عمـــير ، ذلك الذي قتل أسحاق رابين . اعتبرت أن أول فصـــل يمكـــن أن يكون في الكتاب الذي أزمع كتابته عن إسرائيل ، هو فصل عـــن الإرهاب . وبدأت انتقي اسما للفصل . الإرهاب يتجسم . وبـــدأت أفتش عن حوادث الإرهاب في الماضي ، فلم أجد إلا حادثة ليفـــي أشكول . وقد قتل في ظروف غامضة . لكـــن رأيـــت أن اتـــرك الماضي جانبا وأبدأ في التفتيش عن الإرهاب في الوقت الحاضر . وبدا لي أن ذلك يتخفى وراء الأحزاب الدينية الأرثوذكسية . وقـــد نما إلى علمي أن حاخامات بروكلين قد قرؤوا التعاويذ حتى يسلب الرب روح رابين . ذلك الذي فرط في الأرض ولا أدري ما هـــي الأرض ؟ .. أهي الأرض التي تم اغتصابها منذ عـــام ١٩٦٧ أم تلك التي تم وضع اليد عليها في عام ١٩٤٨ .

لم أجد غير أخي موشيه يقودني إلى تلك الأحزاب ، فهو حاخام منخرط في حزب مزراحي ، لذلك وجدت أن أرافقـــه إلـــى هـــذا الحزب حتى أتوصل إلـــى أهدافـــهم الإجراميـــة أو الإرهابيـــة . وتذكرت الإرهاب الذي كانت تباشره إسرائيل على الفلســـطينيين ، وها هو يباشر ضدها .

تذكرت مذبحة دير ياسين (قرب أورشليم) قال الإسرائيليون إن هذه الحادثة شاذة ومسئولة عنها عصابات اليمين المتطرف إيسل وليمي . وتبين فيما بعد أن الهجاناه وهو الجيش الفعلي للحركة الصهيونية شارك في هذه المذبحة ، ثم بعد شهرين قام هذا الجيش نفسه بارتكاب عشرات من المذابح . . بهدف تخويف وترحيل العرب . كانوا يختارون عشرة شبان أقوياء بشكل عشوائي ويوقفونهم أمام بقية السكان ويطلقون عليهم الرصاص حتى الموت فيرتعب الناس ويبادرون بالرحيل . بهذه الطريقة جرى ترحيل سكان الصفصاف وعيلوان وعيلبون واللد والرملة وسعسع وأم الزينات وغيرها وهناك قرى هدمت عن بكرة أبيها وتبلغ أربعمائة قرية عربية . وبعد ذلك قام حكم عسكري على العرب كان حكمًا قمعيًا . . وكانت لا تفارقني صورة مجزرة كفو قاسم الرهيبة في ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ حين تم ذبح ٤٩ شخصًا بينهم نساء وشيوخ وذلك بهدف إرهاب المواطنين . وفي عشر قرى أخرى في المنطقة المعروفة بالمثلث حدث ذلك الإرهاب لإرغام الناس على الرحيل . ولما فشلت الخطة قررت الحكومة محاكمة الفاعلين بهدف امتصاص الغضب لكن المحاكمة كانت صورية . وتم كشف مخططات لطرد من ٧٠٠ إلى ٨٠٠ ألف عربي من الجليل والمثلث والضفة الغربية أثناء الحرب .

كنت أعاكس موشيه كثيرًا في المسائل الدينية . وعرضت عليه ذلك الرأي الذي قرأته في إحدى المجلات الأمريكية . قلت : إن أحد العلماء قرر أنه عندما عبر النبي موسى مع الإسرائيليين من مصر إلى سيناء . كانت هناك عوامل الجزر عن الأرض التي تربط سيناء بمصر . حينئذ عبروا . ولكن لما جاء جيش فرعون المعادي حدثت عوامل المد فغرقت الأرض فغرق جنود فرعون .

طأطأ رأسه وقال : تريد أن تنفي عن نبينا العظيم معجزة أنه شق البحر بعصاه وعبر بني إسرائيل .

قلت : أنا لا أنفي ولا أثبت . أنا أقول لك رأي عالم من العلماء .

قال : إن ذلك العالم مغرض مثلك . علماني مثلك .

قلت : لا داعي للحديث . كف عنه .

قال : سأحدثك أنا عن حزب المفدال .. حتى إذا ما دخلت وجلست بين الأعضاء .. تكون على بينة من الأمر .

قتلاً للوقت ، وسيارة الأجرة تقلنا إلى مقر الحزب . قال موشيه : مؤسس الحزب اسمه أسحاق يعقوب وانيس . كان حاخامًا . تجمع أبناء صهيون حوله لأنه رجل حكمة ومعرفة عميقة وخبير من خبراء التلمود . استطاع أن يبني يشيفا في ليده بلده . ومدرسة في تل أبيب . ومعهدًا للمدرسين في القدس . افتتحت منظمة المزراحي مركزًا مؤقتًا في يافا عام ١٩١٨ ..

قاطعته وقد دب السأم في صدري وتساءلت : ستحكي لي تاريخًا أعرفه .

شعرت أنه تضايق من مقاطعتي وهو يستمر : تأسس بعد الحزب المزراحي حزب آخر سمى العامل المزراحي . هبو عيل همزراحي . يشدد على أهمية الدين والقومية وذلك في عام ١٩٢٢ .

قلت أقاطع موشيه : يبدو أننا لن ننتهي .

أختصر موشيه كلماته قائلاً : بعد قيام إسرائيل برز اتجاه لتوحيد الحزبين المزراحي والعامل المزراحي في حزب واحد اسمه الحزب الديني القومي . فعلاجاداتيت لتوقيت . وعُرف باسم المفدال .

كنا قد وصلنا إلى مقر الحزب ، ودخلنا من الأبواب . واستقبلنا أمين الحزب . واكتشفت أن موشيه إيجال عضوًا بارزًا في الحزب. وقدم أمين الحزب بعض كتب تتعلق بسياسة الحزب . وقع نظري على كلمات فيها : " إن تنفيذ الوعد الإلهي بأرض الميعاد لابد أن يتم من خلال اتباع الوصايا الدينية وليس عن طريق الاعتداء على الآخرين . " لكن في جهة أخرى من الكتاب يعترف بالحقوق التاريخية الإسرائيلية في أرض إسرائيل داخل حدودها الآمنة . ويدعو إلى استيطان سريع للمناطق الجديدة خاصة منطقة القدس . امتعضت . فهو من ناحية يرفض الحرب .

ومن ناحية أخرى يرفض التنازل عن المكاسب التي جاءت بالحرب . وأنا أكره سيرة الحرب . وكل ما يتعلق بها .

في مقر الحزب التقيت بأحد الأصدقاء القدامى ، وهنأني بسلامة الوصول . لكن لما عرف أنني سأعود إلى أمريكا راح يحلل تصرفاتي والثقة تملأ عينيه .

قال صديقي : أنت تدعي أنك لم تطق البقاء في إسرائيل بسبب هزيمتنا في الحرب أو لأنك أسرت . والدليل على ذلك أنك التحقت بالجامعة واستمررت أربع سنوات بها واشتغلت بعدها ثلاث سنوات . إنها ليست عقدتي الحرب والأسر كما تدعي إنما هي عقدة الذنب . شعرت أن كل الفظائع التي ارتكبتها إسرائيل في حق الفلسطينيين تجبرك على مغادرة هذه البلاد وعدم الانتساب إليها .

فوجئت بالتحليل ، وهو يستطرد قائلاً : لقد عرفت في الجامعة كل الأخطاء أو كل الجرائم التي ارتكبناها وما زلنا نرتكبها . وتضخم لديك الشعور بالذنب حتى لم تعد تطيق البقاء .

لم أشأ أن أقاطعه . كان يتكلم كما لو كنت أتكلم . واستغربت أنه يتكلم هذا الكلام ولا يتخذ الخطوة التي اتخذتها من قبل بأن يهاجر مثلي إلى أمريكا أو استراليا أو أي بقعة من بقع الأرض بعيدًا عن المجازر والدماء والاحتلال . قلت لصديقي وأخي موشيه يتركنا لينضم إلى بعض أعضاء الحزب : من الممكن أن تقول إنني هربت من العنف الإسرائيلي . كانت حوادث العنف تطاردني في كل وقت . بت أكرهه . قرأت عن مذبحة دير ياسين قرب

القدس . وقال الإسرائيليون أنها حادث شاذ يمكن أن تسأل عنه عصابات اليمين المتطرف إيسل وليمي . ولكن تبين فيما بعد أن الهجاناه الجيش الفعلي للحركة الصهيونية شارك مباشرة في هذه المذبحة . ومن بينهم الوزير الأول المغدور أسحاق رابين . . وتذكرت بقر بطون النساء الحوامل بالمدي والحراب . وقطع الأطفال أربا أربا أمام أعين الآباء والأمهات . ومذابح كثيرة تهدف إلى تخويف وترحيل العرب . وأذكر لك صب البرافين على الأسرى العرب وإشعال النار فيهم وهم أحياء . ويمر بذاكرتي اختيار عشرة أقوياء بشكل عشوائي وإيقافهم أمام بقية السكان وإطلاق الرصاص عليهم حتى الموت لبعث الرعب في قلوب الناس ويبادروا بالرحيل . ما هذا ؟ .. ولمصلحة من ؟ .. وهل دمار الناس من مصلحتنا ؟ .. إن هذه المآسي نفسها تكررت في الجولان في عام ١٩٦٧ . وزاد عليها استخدام النابالم المحرقة مثلما استخدمت في سيناء في نفس الزمن . علاوة على استخدام الأسلحة الجرثومية .

قلت لمحدثي : سمعت وأنا في أمريكا وأخبار إسرائيل تطاردني أن عشيرتي اجتاحت جنوب لبنان . حقا هب المسلمون يدافعون عن أنفسهم وعن أعراضهم وأموالهم وأراضيهم ، لكن هيهات .. سحق السلاح كل مقاومة . وقرأت عن صابرا وشاتيلا . كانت بمثابة وقود لزيادة حماسي في ألا أعود . كنت يوما قد فاض بي الشوق إلى أهلي وأصدقائي في إسرائيل . لكن لما وصلتني أنباء

المذبحة أحجمت . ربما لم أفكر في العودة أو بالأحرى الزيارة إلا بعد أن هدأت الحروب على كل الجبهات . وخفف أطفال الحجارة هجومهم . ووقع المتعادون مواثيق تؤكد رغبتهم في السلام .

ثم قلت له : تباغتني حالة من الاختناق في التنفس بعد حرب كيبور كلما بلغ مسمعي شيئًا عن العنف . ولعل هذه الحالة جعلتني أندفع للهرب من إسرائيل بعيدًا عن مشاهد العنف الرهيبة . وكانت تجتاحني هذه الحالة كلما قرأت عن هذه المشاهد في الصحف ولو أنها كانت تصل مخففة إلى حد ما بفضل سيطرة الصهيونية على الصحف في أمريكا . من أجل ذلك كنت لا أشاهد أفلام العنف سواء في السينما أو التلفزيون . وأقفل الشاشة الصغيرة إذا ما لاح فيلم من تلك الأفلام .

(٢٦)

انطلقت أحمل أمتعتي القليلة ، إذ لم أكن انوي قضاء أيام كثيرة في تل أبيب . وألقيت بها في أول فندق صادفني ، وخرجت متوجهًا إلى المصرف الذي كنت أعمل به . وكأني تركته منذ الأمس . نفس الوجوه طُعمت بوجوه جديدة . استقبلوني بالترحاب . تذكروا بن إيجال الذي هاجر إلى أمريكا . وضمني إليه رئيسي السابق هرمان هربرت . وأجلسني في مكتبه زهاء ساعة وهو يعلن اشتياقه إليّ . وكذبت مسامعي فإن علاقتي به كانت خالية من أي قوة . وفهمت في النهاية أنه يريد أن يشكو لي ابنته . هرمينا . البنت التي فارقته شابة يافعة وعادت إليه أرملة منكسرة . تريد أن تفارق هي الأخرى إسرائيل لأنها فقدت حبها على هذه الأرض قاتلة الأحباء .

ظن أنني عدت إلى أرض الوطن بعد هجرة طويلة لكنه فوجئ أنني أقضي إجازتي في إسرائيل . وقد جمعت إجازة ثلاث سنوات متتالية سابقة لم أكن قد حصلت عليها . وأنني ما جئت إلا لزيارة

والدي ، وسأعود من جديد . فأعرض قليلاً عني ثم قال : أنت لـن تنفع أن تعيد إليها رشدها . كنت أريد أن أقول لها ها هو مـهاجر عاد من جديد . وسوف تذهبين وتتعذبين وتعودين ثانية إلى الديار ، فلم البحث عن المشقة . قلت له وقد لاحت فكرة في رأسي : دعني أراها قد أقنعها بالعدول . هز رأسه مرحبًا وقال : أحقًا ما تقول ؟ ..

عرفت بعد أن دخلت بيته أنانية الأب . هذا أب غادره ولده وابنته ، وعادت إليه الابنة أرملة . وكانت الأم قد رحلت عن الدنيا ، فوجد أنها فرصة أن ترعاه ابنته ، لكنها امرأة مكلومة ، قضت حياتها الزوجية وزوجها بعيد عنها يدافع عن الحدود الشمالية من إسرائيل . ضابط يعسكر في جنوب لبنان . دخلناها عنوة وبقينا فيها بقوة السلاح . هكذا دائمًا معنا السلاح يتكلم . ولو أني أرى أن شيمون بيريز الوزير الأول الجديد يريد للاقتصاد أن يتكلم . يريد الهيمنة على الدول المجاورة بقوة الاقتصاد وتشابكه مع الدول العربية بدلاً من السلاح .

دخلت هرمينا تستقبل ضيف أبيها . إنها امرأة رائعة الجمال ولو أن مسحة الحزن كست وجهها بكآبة كادت تفقدها ذلك الجمال . قال لها الأب : هذا بن إيجال تلميذي السابق في المصرف . هاجر إلى أمريكا .. وعاد أخيرًا .

كأنما أيقظت الكلمات في نفسها حلمًا بعيد المنال فقالت : أحقًا ؟

قلت لا أكذب : ليس بالضبط ، فأنا لا زلت هناك .

امتعض الأب لكذبه وصدقي وأراد لكذبه أن يستقر ويتأكد صدقه بأي طريقة ، وحاول أن يتكلم ، لكنه سمعني أتكلم فانتعش لكلامي : على العموم الهجرة إلى أمريكا ليست أمرًا سهلاً ، فإذا كانت شاقة على الرجل ضعفًا فهي شاقة على المرأة ضعفين .

قال هرمان ونحن نجلس في حجرة الاستقبال بشقته ، وننتظر أن تعد لنا هرمينا القهوة : من النشرات المالية الخاصة تأكد لي أن الديون الخارجية للدولة ارتفعت . وارتفع العجز في الميزان التجاري . ولا أدري كيف يمكن أن يُداوى ذلك العجز . لقد انخفضت التعويضات المالية كما انخفضت تحويلات الوكالات اليهودية . أضف إلى ذلك غلاء الأسعار . وارتفاع مؤشر التضخم . إن العائلات التي تعيش تحت خط الفقر تتزايد أعدادها ....

قاطعته قائلاً : وتصر بالرغم من ذلك على أن تبقي هرمينا في إسرائيل .

قال : إنها تركت عملها واستقرت في البيت . فضلت أن تبقى زوج الميجور في الجبهة الشمالية رغم أنه يأتي إليها كل شهر . ولما قُتل هناك في جنوب لبنان بحثت عن عمل .. أرادت أن تعود إلى عملها .. لكنها فشلت .

قلت : إنك تجني عليها .. سوف يؤدي الفراغ والحزن والملل إلى تحطيمها .

برقت فكرة في رأسه وقد تنازل فيها عن أنانيته إذ راح يقول : أنت ستعود إلى أمريكا ؟ .. قلت : هذا مؤكد . قال : لم لا تأخذها معك وترعاها .

يبدو أنه يخشى أن يقول تزوجها وارعها . يبدو أنني قد أكون متزوجًا ولا أصرح فكيف يطلب مني أن أتزوجها .

قلت أفاجئه : ولم لا تقول تزوجها وأرعها .

سأل مستفسرًا : ألست متزوجًا ؟ ..

قلت : لا .. حتى الآن .

قال : غريب .

جاءت هرمينا تحمل الشاي ومجموعات من الكعك المحلى بالسكر والمطعم بالملح . يبدو أنها سيدة منزل ممتازة . وصبت الشاي وأنا أراقب يدها الصغيرة . تبدو ناعمة خالية من العروق كأنها تستعمل القفاز أثناء العمل المنزلي حتى لا تجف بشرتها أو تخشوشن .

سألتني : أين تقيم في أمريكا ؟ .

قلت : في نيويورك .

قالت : هناك تزيد الجرائم وترتفع أعداد السرقات فضلاً عن انتشار المخدرات ...

قاطعها أبوها قائلاً : إن ذلك الوضع موجود عندنا أيضًا . إن عدد مدمني المخدرات يرتفع عامًا بعد آخر . قرأت بحثًا من جامعة تل أبيب أشار إلى أن عشرة في المائة من إجمالي طلاب الجامعة يتعاطون المخدرات .

قلت : على العموم هناك جالية كبيرة في نيويورك في حي اسمه بروكلين . هناك لن يشعر المرء بأنه بعيد عن مجتمعه .

قالت هرمينا : سمعت أن هناك تفرقة عنصرية ولو أنها خفية بين أصحاب الأديان المختلفة ...

قاطعها والدها كأنما يحلي لها الكعكة : أليس عندنا تمييز طائفي في المجتمع . ليس فقط بين الإسرائيليين والعرب . بل داخل المجتمع الإسرائيلي بسبب لون البشرة . مما ترتب عليه ظواهر مختلفة في السياسة والمهن والجيش .

قلت : نعم . هناك تفرقة بين السفارديم القادمين من الدول العربية . والإشكناز القادمين من أوربا . والصابرا الذين ولدوا وترعرعوا هنا في أرض الميعاد . ويمثل السفارديم المراتب الدنيا ، ومستواهم الثقافي منخفض إذا قارناهم بالإشكناز .

قال الأب محللاً : إن هناك تفككًا اجتماعيًا بين فئات المجتمع الإسرائيلي . كل فئة تعيش في واد بعيد عن وادي الأخرى . ألا يقال إنني في ألمانيا أشعر أنني يهودي وفي إسرائيل أشعر أنني ألماني .

قالت هرمينا : إن يهود الغرب يسيطرون على يهود الشـــرق . في الحكومة وقيادة الجيش ومكاتب الهجرة والهستدروت

قلت : المهم بعد قدوم الفلاشا تفشت ظاهرة التفرقة العنصريـــة الموجودة في أمريكا . ما زلنا نعتبر الجنس الأسود جنسًا وضيعًا . والجنس الأبيض جنسًا ساميًا . رغم أن كلاً منهما يهودي وربمـــا الأسود أكثر تقوى من الأبيض . . ألم تسمعي عن حي حكاريم في أورشليم حيث سكنه يهود ألوانهم متقاربـــة . ســمعت أن طلبـة مدارس البيض ترفض تناول الطعام مع طلبة المدارس السود . كل ذلك يؤدي إلى زيادة الهجرة من إسرائيل .

كانت هرمينا بيضاء اللون ، وأبوهـــا مـــن أصـــول يهوديـــة فرنسية . كان لون بشرتها مشرب بالحمرة . وكان التكييف الحـــار الساري داخل الشقة يزيد من حمرة بشرتها . أردت أن أحقق رغبة أبيها قبل رجوعه من قضاء الحاجة . قلت : لم لا تأتين معـي ؟ . قالت : إلى أين ؟ . قلت : إلى نيويورك . نظرت إلى أبيها عنـــد رجوعه وهو يسمع المقطع الأخير ، فقال : لا مانع عندي . قلت : لكن على أساس معين . سألت : ما هو ؟ .. قلت : نـــتزوج . لـــم يكن أمامي وقد دنوت من الأربعين إلا أن أحسم أمري . لا يمكـــن أن أتزوج عذراء وذلك لأنها ستكون صغيرة ، وسترفضني لكـــبر سني . وأمامي الآن أرملة جميلة ، فلم لا أنتهز الفرصة وأقتنـــص الصدفة .

عند شاطئ البحر ، في كازينو مقفل ، التقيت بهرمينا . كنت أريد أن أوضح لها الماضي الخاص بي حتى لا تقول بعد حين إنني دخلت حياتها بالغش والخداع .

قلت لها : سأقص عليك قصة حياتي . ربما تنفرين مني ، ولا توافقين على الزواج مني بعد سماعها . وربما لا تكون ذات أهمية لديك .

قالت: أرو .. أنا مستمعة .

قلت : فوجئت بعد عودتي من أمريكا أن لي ابنًا ... بلغ أربعة عشر عامًا .

اندهشت وقالت : معقول ..

قلت بهدوء : زفت إلي الخبر امرأة كنت على علاقة وطيدة بها . طلبت منها أن تأتي معي إلى أمريكا لكنها رفضت . كانت متعلقة بالأرض والاستقرار فيها . وكانت العلاقات بيننا قد توثقت لدرجة أنني دخلت بها قبل أن نعقد قراننا . وتركت بذرة في جوفها نمت وترعرعت وكانت ولدًا . هذا الولد ترعاه هي . وقررت أن أساهم معها في مصاريف رعايته حتى يستكمل تعليمه ويشق طريقه في الحياة .

سألت : وما علاقتي بهذه القصة ؟ ..

قلت : لو ارتبط بك فيجب أن تكوني على علم بأن لي ولدًا .. قد يأتي إلى أمريكا .. وأنني سأستمر أنفق عليه وأنت في أمريكا ، فلا تفاجئين . إنني أعرض عليك الأمر لتفكري فيه . ربما تجيدين

أن الارتباط برجل له ولد أمر غير مستساغ . تريدين رجلاً لا ارتباط سابق له .

قالت : على العموم ، لنترك هذا الأمر جانبًا .. وأنا اعتقد أنني لن أستطيع أن ارتبط بك على الفور . سوف أرحل إلى أمريكا . وهناك اتصل بك فإذا ما توثقت علاقتنا . وصار هناك حب في قلبي نحوك فلا شك أنني سأرتبط بك . وقد تشعر أنت – في هذه الحالة – أن من المستحيل أن ترتبط بي وأنك نادم على علاقتي بك .. فيمكنك أن تنهي العلاقة . أترك الأمر للأيام .. كل ما ابتغيه منك هو أن تساعدني فقط على اجتياز الأيام الأولى في أمريكا .

رجعت من تل أبيب . وأنا حائر فيما تقصده هرمينا هل سنتزوج أم أنها تريد أن تأخذني سلمًا للبقاء في أمريكا . شعرت بأنها لا تزال تعتز بذكرى زوجها الضابط الذي قُتل في حربنا مع لبنان . لم أحاول الاتصال بعلياء ، فقد شعرت في المرة الأخيرة أنها طردتني من قلبها . واتصلت بجولدا لأرى أسحاق ابني منها قبل أن أغادر إلى نيويورك .

بادرتني أمها قائلة : ألن تتزوجا يا بن ؟

قلت : ابنتك لا تريد . تضع شروطًا . ومن شروطها أن أبقى هنا في إسرائيل . مع أني قد استقررت في أمريكا .

قالت : وما المانع أن تعود إلى إسرائيل ؟ ..

قلت : إنني هاجرت واصبح موطني الجديد هو أمريكا . وهناك تعلمت تعليما عاليا . وحصلت على مراتـــب كبـيرة . وارتفـع أجرى . وأصبح لي شقة أملكها . ولي أيضا أسهم وسـندات فـي شركات مختلفة . وإذا عدت فسوف أخسر هذا كله . أما لو جـاءت معي فسوف تتمتع بهذه الأموال معي .

قالت الأم : وهل ستتركني هنا وحدي ؟

فهمت أخيرا سبب إصرارها على البقـاء فـي إسـرائيل . إن السبب هو أمها . لا يمكن لجولدا في أواخر أيام أمها أن تهجرها ، ستشعر في ذلك الوقت بوطأة الذنب .

قلت على الفور : لم لا تأتين معنا .. ومعنا أسحاق أيضا .

ربت على كتف أسحاق الذي جلس بجانبي وهو ينصت بإمعـان . وأمه تعد شايا له وقهوة لي .

فكرت الأم مليا وتساءلت : وهل أنا أستطيع ؟ ..

قلت : إن الوسائل الحديثة تسهل الانتقال الآن . وليـس فيـها تعب . كل ما في الأمر أنك سوف تدخلين أمريكا سائحة . وحينما تبقين في شقتي الواسعة لن تغادريها .. وأنت هنا لا تغادرين شقتك فلن يكون هناك فرق .

ولما جاءت جولدا وعرضت أمها عليـها أفكـاري الجديـدة . قالت : لا .. لن أذهب إلى أمريكا ، لأبدأ من الصفر . إن حيـاتي في العمل وليس من السهل أن أبقى في البيت بلا عمل .

شعرت أنني أديت ما عليّ . وقبلـــت أســحاق . وخرجــت . ولحقت بي جولدا لتودعني متسائلة : هل ستسافر ؟ .. قلت : هــذا أمر لا شك فيه . ثم سألتها : متى تتزوجين من ...؟ قاطعتني قائلة : أنا لن أتزوج . قلت : ألا يرغب في الزواج منك ؟ .. قــالت : لم يعرض . وأنا لن أطلب . سألت : إذن ما هي العلاقة بينكما ؟ . قالت: صداقة : قلت : وهل تصدقين أن تقوم صداقة بيــن رجــل وامرأة ؟ ..

(٢٧)

بعد عودتي إلى أمريكا محملا بعدد من الكتب مستقبلا للكتب التي أرسلتها من مصر . تركت كتب مصر جانبا . وبدأت استعد لتحليل البيانات التي معي عن إسرائيل . بدأت أفتش عن مقومات البقاء والفناء في البيانات والكتب الكثيرة التي حملتها . بدأت أكتب صفحات أخذت تنمو وتنمو . وواجهتني مشكلة هامة : هل لو استنتجت من كتاباتي أن إسرائيل سوف تنهار سأجد ناشرا لكتابي ؟ .. إن كل المجهود الذي أبذله سوف يوارى في المدفأة . وهناك يحترق الورق وتختفي كل الأفكار التي كتبتها . ولو استنبط أن إسرائيل باقية وسوف تبتلع كل من حولها من دول وأفراد ، حينئذ سوف يتهافت الناشرون على كتابي ، ويتسابقون في نشره في كل أنحاء الدنيا . وقد أحقق ثروة لا بأس بها .

نمت متعبا بعد أن كتبت الكثير من الصفحات والتحليلات في بيانات السكان والأرض والسلطة . وقد أكلت أكلة دسمة لم أكن متعودا عليها من قبل . كان الجوع يلطم معدتي فأقذفها باللقيمات حتى سكتت عن الألم .

وكأني استيقظت أدرت المذياع . وصلني صوت المذيع يعلن استقلال جمهورية يهودا عن جمهورية إسرائيل . ارتعشت . بداية الانهيار . لقد استقلت يهودا باليهود الشرقيين . وأصبحت إسرائيل تقتصر على اليهود الغربيين . وفجأة برز صوت آخر يعلن

جمهورية صهيون . استقلت هذه الجمهورية باليهود أصحاب الأرض من مئات السنين . وأقامت حكمها على جبل صهيون . ولم تسمح أن يكون من مواطنيها اليهود الآخرين القادمين من الدول الغربية أو الشرقية حديثًا .. ماذا حدث ؟ .. تفتت إسرائيل إلى جمهوريات ثلاث .

وكأني استيقظت فجأة على صوت المذيع يذيع نبأً هامًا وكأني تركت المذياع يعمل ، الحرب بين الجمهوريات الثلاث على الحدود . بعد أن عادت سيناء إلى مصر ، والضفة الغربية وغزة إلى فلسطين ، والجولان إلى سوريا ، وجنوب لبنان إلى أهله . تنازعت الجمهوريات الثلاث . فقد صار الشريط المحدود الذي تعيش فيه ضيقًا .. ماذا حدث ؟ .. أعداد من القتلى والجرحى . إسرائيل تدمر يهودا .. ويهودا تدمر صهيون .. وصهيون ترد العدوان .

مفاعل ديمونة ينفجر . الإشعاع ينتشر في كل أنحاء إسرائيل ، فيتسرب إلى الضفة الغربية وغزة . يدخل سيناء . ويعم هضبة الجولان وجنوب لبنان . الناس تصاب بالإشعاع ويموتون . اضطررت أن أشاهد التلفزيون وهو يعرض جثث الموتى . حيث طارت طائرة على ارتفاع منخفض لتصوير الجثث الملقاة في الشوارع والميادين والحقول . كارثة تشرنوبل تتكرر . وإلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما ونجازاكي أقل درجة من انفجار مفاعل ديمونة . يقول المذيع : هذا جزاء اللعب بالنار . استيقظت

مفزوعًا . واستغربت أن احلم هذه الأحلام المزعجة . ماذا أكلت قبل أن أنام ؟ .. كأنني أكلت لحمًا مستوردًا من بريطانيا لبقرة مريضة بجنون البقر فصرت أُخرف . وانتقل الجنون إليّ دون أن أدري فأخذت أتهوس. وأشاهد الناس وقد تعرضوا للإسهال والقيء والحروق والعمى وسيولة الدم وفقره . وبدا يظهر السرطان في الجلد والعظام والدم . انتهي الناس . جاء يوم جديد من أيام الفناء .

انتهيت من كتاب " قيام وسقوط إسرائيل " بعد استقراء كثير من المراجع الإسرائيلية وغير الإسرائيلية ، وبعد كثير من الكوابيس والأحلام المزعجة . لكنني ترددت في إرساله إلى أي دار من دور النشر المعروفة ذلك لأني أعرف مصيره . الرفض ، فأودعته خزانة كتبي ، حتى إذا ما تجمع ليّ مبلغ من المال قمت بنشره وأتعرض لما يحدث ليّ من أخطار ، أو أنشره باسم مجهول ليس له عنوان . وقد أبقى حتى أستطيع أن انشره دون أن يواجه معارضة كبيرة .

لقد تنبأت في هذا الكتاب أن دولة إسرائيل سوف تتحول من دولة دينية إلى دولة بها كل الأديان والناس فيها سواسية . ومن المنتظر أن يحكمها يهودي أو مسيحي أو مسلم . فسوف تختفي النعرة الدينية من السياسة وسوف يكون هدف الحكام المتعاقبين خير المواطن بغض النظر عن جنسه أو دينه أو لونه أو انتماؤه العرقي . فهل مثل هذا الكتاب يمكن أن يجد رواجًا ؟ ..

رن جرس الهاتف وسمعت صوتها يقـــول : أنـــا هرمينـــا .. وصلت إلى أمريكا . سألتها ضاحكًا : أمريكا الشمالية أم أمريكـــا الجنوبية . قالت تبادلني سخرية بسخرية : لا .. أمريكا الغربيـــة . قلت : إذن فأنت في نيويورك . قالت : نعم .. لا شك . ســـألت : هل سوف تبقين طويلاً أم سوف تعودين ؟ .. قالت : لا .. قـورت البقاء . قلت : كيف نلتقي ؟ .. ومتـــى ؟ .. قـــالت : أنـــا رهـــن الإشارة . سألت : أين أنت الآن ؟ .. قالت : أنا أقيم مؤقتًـــا فـــي فندق في الشارع رقم ٤٢ .. هل تأخذ اسمه .

قلت : انتظري حتى أجهز قلمًا وورقةً .

كتبت العنوان ورقم هاتف الفندق ووعدتها أن أمر عليها بعـــد الساعة الخامسة ، حينما انتهي من عملي في المصرف . وافقـت . وبدأت استعد للخروج من منزلي إلى المصرف .

كانت نيويورك قد عانت كثيرًا من الثلوج . وبدأ البرد يزحـــف ثم توارى عن الأحاسيس . وحل محله الربيع الدافئ المطعم بألوان من الصيف الجميل . وسمعت نشرة أخبار أمريكية . وفوجئـت أن السيد بيريز قد وافق على وقف إطلاق النار في لبنان . كنـــت لا أفهم لم تحتل إسرائيل هذا الشريط الضيق من لبنان ؟ .. الأمـــن ؟ .. وماذا فعل لها هذا الاحتلال أمام صواريـــخ الكاتيوشـــا ؟ .. إن مستعمرة كريات شمونة لا تزال تتلقى صواريخ الكاتيوشـــا مـــن حزب الله . وفي جهة بعيدة عن ذلك الحزب ، يدك بيريز قنابلـــه

على العزل من الأطفال والنساء والشيوخ . زاعمًا أن أعضاء حزب الله مندسون بينهم . رأيت على الشاشة الصغيرة صوراً مبتورة لجثث الأطفال الرضع والنساء الثكلى ينتحبن والرجال تائهين . ماذا فعلوا له هؤلاء الفقراء الذين لا يملكون سلاحًا يدافعون به عن أنفسهم ؟ .. كاد القرف يعود إليّ من جديد . وبدلاً من أن أتوجه إلى مكتبي واستخرج منها الكتاب المطمور فيها وأدفعه إلى أي ناشر من الناشرين الأحرار ، فكرت أن اذهب واستخرجه من قاعه المظلم وأحرقه . ترددت لأن فيه ضياعًا لمجهود شهرين كاملين .

قبل أن أغادر شقتي . رن جرس الهاتف مرة أخرى وقالت المتكلمة : كيف الحال يا بن ؟ .. سألت : من جولدا .. أين أنت ؟ .. قالت : أنا في نيويورك . قلت ساخرًا : كيف ذلك وأنتم تحرقون لبنان . أليس من الواجب أن تكونوا بجانب القيادة ؟ .. قالت بجد : جئت في إجازة . سألت : وكيف صرحوا لك ؟ .. قالت : لقد ماتت أمي .. وكان من الواجب أن أحصل على إجازة . سألت : هل جئت وحدك ؟ .. قالت : لا .. معي بن ؟ قلت : أين تقيمان ؟ ..

كتبت عنوانها وأنا حائر . هل جاءت مهاجرة وتريد أن تقيم معي هي وبن ؟ .. وماذا أفعل مع هرمينا ؟ .. غشيني القلق وأنا اتجه إلى المصرف . . وكنت متوترا طوال الوقت .

حتى أن المرؤوسين لاحظوا ذلك وانتقدوا شرودي . لا يمكـــن أن آخذ هرمينا إلى شقتي . ولا يمكن أن تجتمع مع جولدا وبـــن ، فكيف السبيل إلى حل هذه المعضلة ؟ .. سوف تطالبني جولدا بـأن أجمع شمل العائلة التي تفككت . كان مـــن الواجـب أن تتجمـع ويحدث ذلك منذ خمس عشرة سنة . وسوف تطالبني هرمينــا أن أزفها إلي طبقا لما تم الاتفاق عليه .لقد وعدتها ولكن لم توعدنـــي بشيء لم تقل إن لا مانع لديها أن تتزوجني . أجلت ذلك القرار إلى لقاء في أمريكا .. أما جولدا فلا أعرف سريرتها . هل تحـــررت أخيرا من ذلك الوحش الذي كان يلاحقها ؟ .. إن الطريقة الوحيـدة للهروب منه هو مغادرة إسرائيل وإلا فإنه يلازم ضحيتـــه حتـــى يمتص كل رحيقها .

قابلت في المساء هرمينا . كانت فقــط لا تطلــب منـــي إلا أن أضعها على أول الطريق . لا تفكر في زواج ولا ارتباط إنما فـــي فرصة عمل . قلت لها : هل جئت سائحة أم جئت للعمل ؟ .. قالت : أحب أن أضيف إلى معلوماتك أننـــي حصلـــت علـــى البطاقـــة الخضراء .. نجحت في اليانصيب السنوي لراغبي الـــهجرة إلـــى أمريكا .

قلت وعبء كبير ينزاح عن صدري : أنت محظوظة بـــالفعل .

قالت : كل ما أريد ه منك أن تبحث لي عن عمل يليق بمؤهلاتي .

تناولت منها وثائق السيرة الذاتية ، وقلت لها : قد يكون الأمر عسيرًا في البداية ، لكني سأحاول .

رفضت أن أدعوها إلى شقتي ، فلابد أن جولدا تنتظر هي وبن أن أدعوهما إليها .

وبعد ساعة ذهبت إليهما . شعرت وأنا أضمها إليّ أن حبي قد عاد إلى صدري . بينما لم أشعر بذلك وأنا التقي بهرمينا . بل شعرت بأبوتي تنبثق من أرض جدباء وأنا أضم إليّ ذلك الابن المنتسب إليّ شرعًا . وقلت لهما آمرًا : هيا معي إلى شقتي .

وفي الطريق إلى البيت تذكرت علياء وأسمهان . علياء التي رفضتني لأني يهودي . وأسمهان التي قالت لي حينما قررت العودة إلى الوطن الجديد : هل ألحق بك ونتزوج هناك ؟ .. قلت لها بهدوء : دعيني أفكر . وسوف أرسل لك . اكتبي عنوانك وسوف أرسل لك . لكني لم أرسل لها أي خطاب . كنت في قرارة نفسي لا أفكر أن أكتب لها .

لما مررت بصندوق البريد الخاص بي في نيويورك . وجدت في داخله رسالة من أختي جوديثا . ولما دخلنا الشقة . فضضت الخطاب في حجرة مكتبي ، وبن وجولدا يخلعان ملابسهما . بدأت في قراءة خطاب الأخت العزيزة . كانت تعلمني أنها تزوجت من ذلك المسيحي الأرمني . وتعيش معه في نيوزيلندا وأنها لن تطأ أرض إسرائيل بعد اليوم لأنها تجد الحياة السهلة الرغدة في نيوزيلندا . حياة هادئة فخمة ثرية وتطلب مني أن أبارك زواجها .

كيف أبارك زواجها ؟ .. لا أدري ولكنها كلمات تقـــال حتـــى تطمئن القلوب وتشعر أن الناس راضين عن تصرفاتها . بطبيعـــة الحال لم تطلب والديها لتسألهم هذه المباركة لأنهم سوف يرفضون بل من الممكن أن يقفوا منها موقفًا عدائيًا .

تمت في الرياض في ٨ / ٥ / ١٩٩٦